عُدَّةُ الصَّابِرِينَ

وَذَخِيرَةُ الشَّاكِرِينَ

تأليف

ابن قيّم الجوزيّة

الإمام شمس الدّين أبي عبد الله محمّد بن أبي بكر الزّرعي الدّمشقي

(٦٩١ - ٧٥١هـ)

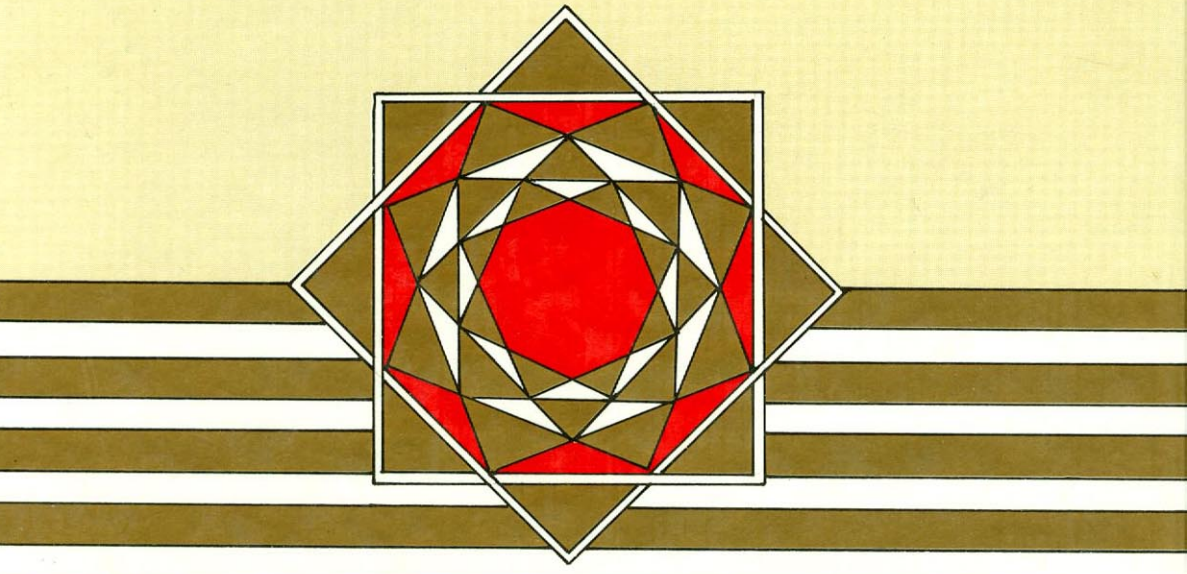

مكتبة دار التراث
المدينة المنورة

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

عُدَّةُ الصَّابِرِينَ

وَذَخِيرَةُ الشَّاكِرِينَ

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الثالثة

١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

دار ابن كثير

دمشق - شارع مسلم البارودي - بناء خولي وصلاحي

هاتف: ٢٢٥٨٧٧ - ص ب: ٣١١

بيروت - ص ب: ١١٣/٦٣١٨

ترجمة المؤلف

منقولة من كتاب جلاء العينين للسيد نعمان الألوسي البغدادي

هو العلاّمة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي ثم الدمشقي، الفقيه الحنبلي المفسر النحوي الأصولي المتكلم، الشهير بابن قيم الجوزية. قال في الشذرات: بل هو المجتهد المطلق. قال ابن رجب: ولد شيخنا سنة إحدى وتسعين وستمائة، ولازم الشيخ تقي الدين بن تيمية وأخذ عنه، وتفنن في كافة علوم الإسلام، وكان عارفاً في التفسير لا يُجارى فيه وبأصول الدين وإليه فيه المنتهى، وبالحديث ومعانيه وفقهه ودقائق الاستنباط منه لا يلحق في ذلك، وبالفقه والأصول والعربية وله فيها اليد الطولى، وبعلم الكلام والتصوف. حبس مدة لإنكاره «جدّ الرحيل إلى قبر الخليل» وكان ذا عبادة وتهجد وطول صلاة إلى الغاية القصوى، ولم أشاهد مثله في عبادته وعلمه بالقرآن والحديث وحقائق الإيمان، وليس هو بالمعصوم ولكن لم أر في معناه مثله، وقد امتحن وأوذي مرات وحبس مع شيخه شيخ الإسلام تقي الدين في المرة الأخيرة بالقلعة منفرداً عنه، ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ، وكان في مدة حبسه مشتغلاً بتلاوة القرآن وبالتدبر والتفكر ففتح عليه من ذلك خير كثير، وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة، وتسلط بسبب ذلك على الكلام في علوم أهل المعارف والخوض في غوامضهم، وتصانيفه ممتلئة بذلك، وحجّ مرات كثيرة وجاور بمكة، وكان أهل مكة يتعجبون من كثرة طوافه وعبادته، وسمعت عليه قصيدته النونية في السُّنّة وأشياء من

تصانيفه غيرها، وأخذ عنه العلم خلق كثير في حياة شيخه وإلى أن مات وانتفعوا به، قال القاضي برهان الدين الزرعي: وما تحت أديم السماء أوسع علماً منه، ودرَّس بالصدرية، وأمَّ بالجوزية، وكتب بخطه ما لا يُوصف كثرة، وصنَّف تصانيف كثيرة جداً في أنواع العلوم، وحصل له من الكتب ما لم يحصل لغيره.

فمن تصانيفه: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح مشكلاته، وسفر الهجرتين، ومراحل السائرين، والكلم الطيب، وزاد المسافرين، وزاد المعاد أربع مجلدات وهو كتاب جليل، وكتاب نقد المنقول، وكتاب إعلام الموقعين عن رب العالمين ثلاث مجلدات، كتاب بدائع الفوائد مجلدان، النونية الشهيرة بالشافية الكافية، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، ونزهة المشتاقين، وكتاب الداء والدواء، وكتاب مفتاح دار السعادة مجلد ضخم غريب الأسلوب، واجتماع الجيوش الإسلامية، وكتاب الطرق الحكمية، وكتاب عدة الصابرين، وكتاب إغاثة اللهفان، وكتاب الروح، وكتاب الصراط المستقيم، والفتح القدسي، والتحفة المكية، والفتاوى، وغير ذلك.

توفي ثالث عشر رجب سنة إحدى وخمسين وسبعمائة، ودفن بمقبرة الباب الصغير بعد أن صُلِّي عليه بمواضع عديدة، وكان قد رأى قبل موته شيخه تقي الدين في النوم وسأله عن منزلته، فأشار إلى علوها فوق بعض الأكابر، ثم قال له: وأنت كدتَ تلحق بنا، ولكن أنت الآن في طبقة ابن خزيمة. رحمهم الله تعالى.

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه نستعين

الحمد لله الصبور الشكور، العليّ الكبير، السميع البصير، العليم القدير. الذي شملت قدرته كل مخلوق، وجرت مشيئته في خلقه بتصاريف الأمور، وأسمعت دعوته لليوم الموعود أصحابَ القبور، قدَّرَ مقادير الخلائق وآجالهم، وكتب آثارهم وأعمالهم، وقسم بينهم معايشهم وأموالهم، وخلق الموت والحياة ليبلوهم أيُّهم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور. القاهر القادر، فكل عسير عليه يسير، وهو المولى النصير، فنعم المولى ونعم النصير. يُسبِّح له ما في السموات وما في الأرض، وله الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن، والله بما تعملون بصير، خلق السموات والأرض بالحق وصوَّركم فأحسن صوركم وإليه المصير، يعلم ما تسرون وما تعلنون، والله عليم بذات الصدور. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إله جلَّ عن الشبيه والنظير، وتعالى عن الشريك والظهير، وتقدَّس عن تعطيل الملحدين كما تنزه عن شبه المخلوقين، فليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وخيرته من بريته، وصفوته من خليقته، وأمينه على وحيه، وسفيره بينه وبين عباده، أعرف الخلق به، وأقومهم بخشيته، وأنصحهم لأمته، وأصبرهم لحكمة، وأشكرهم لنعمه، وأقربهم إليه وسيلة، وأعلاهم عنده منزلة، وأعظمهم عنده جاهاً، وأوسعهم عنده شفاعةً. بعثه إلى الجنة داعياً، وللإيمان منادياً، وفي مرضاته ساعياً، وبالمعروف آمراً وعن المنكر ناهياً. فبلَّغ رسالات ربه

وصدع بأمره، وتحمَّل في مرضاته ما لم يتحمله بشر سواه. وقام لله بالصبر والشكر حقَّ القيام حتى بلغ رضاه، فثبت في مقام الصبر حتى لم يلحقه أحد من الصابرين. وترقَّى في درجة الشكر حتى علا فوق جميع الشاكرين، فحمِده اللَّهُ وملائكته ورسله وجميع المؤمنين، ولذلك خُصَّ بلواء الحمد دون جميع العالمين، فآدم تحت لوائه ومن دونه الأنبياء والمرسلين، وجعل الحمد فاتحة كتابه الذي أنزله عليه كذلك فيما بلغنا وفي التوراة والإنجيل، وجعله آخر دعوى أهل ثوابه الذين هداهم على يديه، وسمى أمته الحامدين قبل أن يخرجهم إلى الوجود، لحمدهم له على السراء والضراء، والشدة والرخاء، وجعلهم أسبق الأمم إلى دار الثواب والجزاء، فأقرب الخلق إلى لوائه أكثرهم حمداً لله وذكراً، كما أن أعلاهم منزلة أكثرهم صبراً وشكراً، فصلَّى الله وملائكته وأنبياؤه ورسله وجميع المؤمنين عليه كما وحَّدَ الله وعرّف به ودعا إليه، وسلَّم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإن الله سبحانه جعل الصبر جواداً لا يكبو، وصارماً لا ينبو، وجنداً غالباً لا يُهزم، وحصناً حصيناً لا يهدم ولا يثلم، فهو والنصر أخوان شقيقان فالنصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، والعسر مع اليسر، وهو أنصر لصاحبه من الرجال بلا عدّة ولا عدد، ومحلُّه من الظفر كمحلّ الرأس من الجسد، ولقد ضمن الوفيُّ الصادق لأهله في محكم الكتاب أنه يوفيهم أجرهم بغير حساب، وأخبرهم أنه معهم بهدايته ونصره العزيز وفتحه المبين، فقال تعالى: ﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ [الأنفال: ٤٦]. فظفر الصابرون بهذه المعية بخير الدنيا والآخرة، وفازوا بها بنعمه الباطنة والظاهرة، وجعل سبحانه الإمامة في الدين منوطة بالصبر واليقين، فقال تعالى وبقوله اهتدى المهتدون: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ [السجدة: ٢٤].

وأخبر أن الصبر خير لأهله مؤكداً باليمين، فقال تعالى: ﴿ولئن صبرتُم لهو خيرٌ للصابرين﴾ [النحل: ١٢٦]، وأخبر أن مع الصبر والتقوى

لا يضر كيد العدو ولو كان ذا تسليط فقال تعالى: ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط﴾ [آل عمران: ١٢٠]. وأخبر عن نبيه يوسف الصديق أن صبره وتقواه أوصلاه إلى محل العز والتمكين فقال تعالى: ﴿إنه من يتَّقِ ويصبرْ فإنَّ اللّهَ لا يُضيعُ أجرَ المحسنين﴾ [يوسف: ٩٠]. وعلَّق الفلاح بالصبر والتقوى، فعقل ذلك عنه المؤمنون، فقال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا اصْبرُوا وصَابروا ورابطُوا واتَّقُوا اللَّهَ لعلَّكم تُفلحون﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وأخبر عن محبته لأهله، وفي ذلك أعظم ترغيب للراغبين، فقال تعالى: ﴿واللَّه يُحبُّ الصابرين﴾. ولقد بشر الصابرين بثلاث كل منها خير مما عليه أهل الدنيا يتحاسدون، فقال تعالى: ﴿وبشِّرِ الصابرينَ الذين إذا أصابتهم مصيبةٌ قالوا إنَّا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلواتٌ من ربِّهم ورحمةٌ وأولئك هم المهتدون﴾ [البقرة: ١٥٥].

وأوصى عباده بالاستعانة بالصبر والصلاة على نوائب الدنيا والدين، فقال تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصَّلاةِ وإنها لكبيرةٌ إلا على الخاشعين﴾ [البقرة: ٤٥]. وجعل الفوز بالجنة والنجاة من النار لا يحظى به إلا الصابرون فقال تعالى: ﴿إني جزيتُهم اليومَ بما صبروا أنهم هم الفائزون﴾ [المؤمنون: ١١١]. وأخبر أن الرغبة في ثوابه والإعراض عن الدنيا وزينتها لا ينالها إلا أولو الصبر المؤمنون فقال تعالى: ﴿وقال الذين أُوتوا العلمَ ويلكُم ثوابُ الله خيرٌ لمن آمنَ وعمل صالحاً ولا يُلَقَّاها إلا الصابرون﴾ [القصص: ٨٠]. وأخبر تعالى أن دفع السيئة بالتي هي أحسن تجعل المسيء كأنه ولي حميم فقال تعالى: ﴿ولا تستوي الحسنةُ ولا السيئةُ ادفعْ بالتي هي أحسنُ فإذا الذي بينكَ وبينَه عداوةٌ كأنّه وليٌّ حميم﴾ [فصلت: ٣٥]، وأن هذه الخصلة لا يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم.

وأخبر سبحانه خبراً مؤكداً بالقسم: ﴿إن الإنسانَ لفي خُسر. إلا

الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ وتواصَوْا بالحقِّ وتواصَـوْا بالصبـر﴾ [سورة العصر: ٢ ـ ٣]. وقسم خلقـه قسمين أصحاب ميمنة وأصحاب مشأمة، وخصَّ أهلَ الميمنة أهلَ التواصي بالصبر والمرحمة، وخص بالانتفاع بآياته أهل الصبر وأهل الشكل تمييزاً لهم بهذا الحظ الموفور، فقال في أربع آيات من كتابه: ﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ لكلِّ صبَّارٍ شَكور﴾ [إبراهيم: ٥، لقمان: ٣١، سبأ: ١٩، الشورى: ٣٣]. وعلَّق المغفرةَ والأجرَ بالعملِ الصالحِ والصبرِ، وذلك على من يسَّره عليه يسير فقال: ﴿إلا الذين صبَروا وعملوا الصالحاتِ أولئكَ لهم مغفرةٌ وأجرٌ كبير﴾ [هود: ١١].

وأخبر أن الصبر والمغفرة من العزائم التي تجارة أربابهـا لا تبور، فقال: ﴿ولمن صبرَ وغفرَ إن ذلكَ لمن عزمِ الأمور﴾ [الشورى: ٤٣]. وأمر رسوله بالصبر لحكمه، وأخبر أن صبره إنما هو لربه، وبذلك جميع المصائب تهون، فقال: ﴿واصبرْ لحكم ربِّك فإنكَ بأعيننا﴾ [الطور: ٤٨] وقال: ﴿واصبرْ وما صبرُكَ إلا بالله، ولا تحزنْ عليهم، ولا تَكُ في ضَيْقٍ ممـا يَمكرون، إنَّ اللَّه مع الذين اتَّقَوْا والذين هم مُحسنون﴾ [النحل: ١٢٧].

والصبر آخيّة[1] المؤمن التي يجول ثم يرجع إليها، و«ساق» إيمانه الذي لا اعتماد له إلا عليها، فلا إيمانَ لمن لا صبر له، وإن كان فإيمان قليل في غاية الضَّعف، وصاحبه ممن يعبد الله على حرف، فإن أصابه خير اطمأنّ به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه، خسرَ الدنيا والآخرة، ولم يحظَ منهما إلا بالصفقة الخاسرة، فخير عيش أدركه السعداء بصبـرهم، وترقوا إلى أعلى المنازل بشكرهم، فساروا بين جناحَي الصبرِ والشكرِ إلى جنّات النّعيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فصل: ولما كان الإيمان نصفين: نصف صبر ونصف شكر، كان حقيقاً على من نصح نفسه وأحب نجاتها وآثر سعادتها أن لا يهمل هذين

---

(١) آخية: عروة تثبت في أرض أو حائط وتربط بها الدابة.

الأصلَيْن العظيمين، ولا يعدل عن هذين الطريقَيْن القاصدَيْن، وأن يجعل سَيْره إلى الله بين هذين الطريقين ليجعله الله يوم لقائه مع خير الفريقين.

فكذلك وُضع هذا الكتاب للتعريف بشدة الحاجة والضرورة إليهما، وبيان توقف سعادة الدنيا والآخرة عليهما، فجاء كتاباً جامعاً حاوياً نافعاً فيه من الفوائد ما هو حقيق على أن يُعضَّ عليه بالنوجذ، وتثنى عليه الخناصر، ممتعاً لقارئه، صريحاً للناظر فيه، مُسَلِّياً للحزين، منهضاً للمقصرين، محرِّضاً للمشمرين، مشتملاً على نكات حسان من تفسير القرآن، وعلى أحاديثَ نبوية معزوّة إلى مظانها، وآثارٍ سلفية منسوبة إلى قائلها، ومسائلَ فقهية حسان مقررة بالدليل، ودقائق سلوكيةٍ على سواء السبيل، لا تخفى معرفة ذلك على من فكَّر وأحضر ذهنه، فإن فيه ذكر أقسام الصبر ووجوه الشكر وأنواعه، وفصل النزاع في التفضيل بين الغني الشاكر والفقير الصابر، وذكر حقيقة الدنيا وما مثلَّها اللّهُ ورسولُه والسلفُ الصالح به، والكلام على سير هذه الأمثال ومطابقتها لحقيقة الحال، وذكر ما يُذَمُّ من الدنيا ويحمد، وما يُقرِّب منها إلى الله ويُبعد، وكيف يشقى بها من يشقى ويسعد بها من يسعد، وغير ذلك من الفوائد التي لا تكاد تظفر بها في كتاب سواه، وذلك محض مِنّةٍ من الله على عبده، وعطيّة من بعض عطاياه، فهو كتاب يصلح للملوك والأمراء، والأغنياء والفقراء، والصوفيّة والفقهاء، ينهض بالقاعد إلى المسير، ويُؤنس السائر في الطريق، وينبِّه السالك على المقصود، ومع هذا فهو جهدُ المُقِلِّ، وقدرة المفلس، حذَّرَ فيه من الداء وإن كان من أهله، ووصف فيه الدواء وإن لم يصبر على تناوله لظلمه وجهله، وهو يرجو أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين أن يغفر له غيه لنفسه بنصيحته لعباده المؤمنين، فما كان في الكتاب من صواب فمن الله وحده فهو المحمود والمستعان، وما كان فيه من خطأ فمن مصنفه ومن الشيطان، واللهُ بريءٌ منه ورسولُهُ، وهذه بضاعة مؤلفه المزجاة تُساق إليك، وسلعته تعرض عليك، فلقارئه غنمه، وعلى مؤلفه غرمه. وبنات أفكاره تُزَفُّ إليكَ فإن وَجَدَتْ حراً كريماً

كان بها أسعد، وإلا فهي خُودٌ[1] تزف إلى عِنِّينٍ[2] متعدٍّ.

وقد جعلته ستة وعشرين باباً وخاتمة:

الباب الأول: في معنى الصبر لغةً واشتقاق هذه اللفظة وتصريفها.

الباب الثاني: في حقيقة الصبر وكلام الناس فيه.

الباب الثالث: في بيان أسماء الصبر بالإضافة إلى متعلقه.

الباب الرابع: في الفرق بين الصبر والتَّصَبُّر والاصطبار والمصابرة.

الباب الخامس: في أقسام الصبر باعتبار محله.

الباب السادس: في أقسامه بحسب اختلاف قوته وضعفه ومقاومته لجيش الهوى وعجزه عنه.

الباب السابع: في بيان أقسامه باعتبار متعلقه.

الباب الثامن: في انقسامه باعتبار تعلّق الأحكام الخمسة به.

الباب التاسع: في بيان تفاوت درجات الصبر.

الباب العاشر: في انقسام الصبر إلى محمود ومذموم.

الباب الحادي عشر: في الفرق بين صبر الكرام وصبر اللئام.

الباب الثاني عشر: في الأسباب التي تُعين على الصبر.

الباب الثالث عشر: في بيان أن الإنسان لا يستغني عن الصبر في حال من الأحوال.

الباب الرابع عشر: في بيان أشقّ الصبر على النفوس.

الباب الخامس عشر: في ذكر ما ورد في الصبر من نصوص الكتاب العزيز.

الباب السادس عشر: في ذكر ما ورد فيه من نصوص السنة.

الباب السابع عشر: في ذكر الآثار الواردة عن الصحابة في فضيلة الصبر.

---

(١) خود: المرأة الشابة الحسنة الخلق.

(٢) عنين: العُنّة؛ عجز يُصيب الرجل فلا يقدر على الجماع.

الباب الثامن عشر: في ذكر أمور تتعلق بالمصيبة من البكاء والندب وشقّ الثياب ودعوى الجاهلية ونحوها.

الباب التاسع عشر: في أن الصبر نصف الإيمان، وأن الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر.

الباب العشرون: في بيان تنازع الناس في الأفضل من الصبر والشكر.

الباب الحادي والعشرون: في الحكم بين الفريقين والفصل بين الطائفتين.

الباب الثاني والعشرون: في اختلاف الناس في الغني الشاكر والفقير الصابر؛ أيهما أفضل وما هو الصواب في ذلك.

الباب الثالث والعشرون: في ذكر ما احتجت به الفقراء من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار.

الباب الرابع والعشرون: في ذكر ما احتجت به الأغنياء من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار.

الباب الخامس والعشرون: في بيان الأمور المضادة للصبر، والمنافية له، والقادحة فيه.

الباب السادس والعشرون: في بيان دخول الصبر في صفات الرب جل جلاله وتسميته بالصبور الشكور.

سميته (عِدَة الصابرين وذخيرةُ الشاكرين) والله المسؤول أن يجعله خالصاً لوجهه، مُدْنِياً من رضاه، وأن ينفعَ به مؤلفه وكاتبه وقارئه، إنه سميع الدعاء، وأهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الباب الأول
في معنى الصبر لغة، واشتقاق هذه اللفظة وتصريفها

أصل هذه الكلمة هو المنع والحبس، فالصبر حبس النفس عن الجزع واللسان عن التشكي، والجوارح عن لطم الخدود وشق الثياب ونحوهما، ويقال: صبر يصبر صبراً، وصبَّر نفسه، قال تعالى: ﴿واصبرْ نفسَك مع الذين يدْعونَ ربَّهم﴾ [الكهف: ٢٨] وقال عنترة:

فصبرت عارفةً لذلك حرةً ترسو إذا نفس الجبان تطلّع

يقول حبست نفساً عارفة، وهي نفس حرّ يأنف لا نفس عبد لا أنفة له، وقوله «ترسو» أي تثبت وتسكن إذا خفَّتْ نفس الجبان واضطربت، ويقال صبَرت فلاناً إذا حبسته، وصبَّرته بالتشديد إذا حملته على الصبر، وفي حديث الذي أمسك رجلاً وقتله آخر «يُقتل القاتل ويُصبر الصابرُ» أي يُحبس للموت كما حبس من أمسكه للموت، وصبرت الرجل إذا قتلته صبراً أي أمسكته للقتل، وصبّرته أيضاً وأصبرته إذا حبسته للحلف، ومنه الحديث الصحيح: «من حلفَ على يمين صبر ليقتطع بها مال امرىء مسلم لقي الله وهو عنه معرض». ومنه الحديث الذي في القسامة: « ولا تصبر يمينه حيث تصبر الإيمان» والمصبورة: اليمين المحلوف عليها، وفي الحديث «نهى عن المصبورة» وهي الشاة والدجاجة ونحوهما تصبر للموت فتربط فترمى حتى تموت.

وفعل هذا الباب صبَرت أصبِر بالفتح في الماضي والكسر في

المستقبل، وأما صبرت أصبُر بالضم في المستقبل فهو بمعنى الكفالة، والصبير الكفيل، كأنه حبس نفسه للغرم، ومنه قولهم أصبرني أي جعلني كفيلاً، وقيل أصل الكلمة من الشدة والقوة، ومنه الصبر للدواء المعروف لشدة مرارته وكراهته، قال الأصمعي: إذا لقي الرجل الشدة بكمالها قيل لقيها بأصبارها، ومنه الصُبر بضم الصاد للأرض؛ ذات الخصب لشدتها وصلابتها، ومنه سميت الحرة أم صُبّار، ومنه قولهم: وقع القوم في أمر صبّور بتشديد الباء أي أمر شديد، ومنه صبَارَّة الشتاء بتخفيف الباء وتشديد الراء لشدة برده، وقيل: هو مأخوذ من الجمع والضم، فالصابر يجمع نفسه ويضمها عن الهلع والجزع. ومنه صبرة الطعام، وصبارة الحجارة.

والتحقيق أن في الصبر المعاني الثلاثة: المنع والشدة والضم، ويقال صبر إذا أتى بالصبر، وتصبّر إذا تكلفه واستدعاه، واصطبر إذا اكتسبه وتعلمه وصابر إذا وقف خصمه في مقام الصبر. وصبَّر نفسه وغيره بالتشديد إذا حملها على الصبر، واسم الفاعل صابر وصبّار وصبور ومصابر ومصطبر، فمصابر من صابر، ومصطبر من اصطبر، وصابر من صبر، وأما صبّار وصبور فمن أوزان المبالغة من الثلاثي، كضرَّاب وضروب، والله أعلم.

الباب الثاني

في حقيقة الصبر وكلام الناس فيه

قد تقدم بيان معناه لغة، وأمّا حقيقته فهو خلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها، وسُئِل عنه الجنيد بن محمد فقال: «تجرُّع المرارة من غير تعبس» وقال ذو النون: «هو التباعد عن المخالفات، والسكون عند تجرع غصص البلية، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة»، وقيل: «الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب»، وقيل:

«وهو الغنى في البلوى بلا ظهور شكوى»، وقال أبو عثمان: «الصبّار هو الذي عوَّد نفسه الهجوم على المكاره» وقيل: «الصبر المُقام على البلاء بحسن الصحبة كالمقام مع العافية»، ومعنى هذا أن لله على العبد عبودية في عافيته وفي بلائه، فعليه أن يحسن صحبة العافية بالشكر، وصحبة البلاء بالصبر. وقال عَمْرو بن عثمان المكي: «الصبر هو الثبات مع الله وتلقي بلائه بالرحب والدعة»، ومعنى هذا أنه يتلقّى البلاء بصدر واسع لا يتعلق بالضيق والسخط والشكوى. وقال الخواص: «الصبر الثبات على أحكام الكتاب والسنة»، وقال رويم: «الصبر ترك الشكوى»، فسره بلازمه. وقال غيره: «الصبر هو الاستعانة بالله»، وقال أبو علي: «الصبر كاسمه»، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الصبر مطية لا تكبو»، وقال أبو محمد الجريري: «الصبر أن لا يفرق بين حال النعمة والمحنة مع سكون الخاطر فيهما».

قلت: وهذا غير مقدور ولا مأمور به، فقد ركَّبَ الله الطباع على التفريق بين الحالتين، وإنما المقدور حبس النفس عن الجزع لا استواء الحالتين عند العبد، وساحة العافية أوسع للعبد من ساحة الصبر كما قال النبي ﷺ في الدعاء المشهور: «إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي» ولا يناقض هذا قوله ﷺ: «وما أُعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر» فإن هذا بعد نزول البلاء ليس للعبد أوسع من الصبر، وأما قبله فالعافية أوسع له، وقال أبو علي الدقاق: «حد الصبر أن لا يعترض على التقدير» فأما إظهار البلاء على غير وجه الشكوى فلا ينافي الصبرَ، قال الله تعالى في قصة أيوب: ﴿إنا وجدناه صابراً﴾ مع قوله: ﴿مسني الضر﴾. قلت: فسّر اللفظة بلازمها.

وأما قوله: «على غير وجه الشكوى» فالشكوى نوعان أحدهما. الشكوى إلى الله فهذا لا ينافي الصبر كما قال يعقوب: ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾ مع قوله: ﴿فصبرٌ جميل﴾، وقال أيوب: ﴿مسّني الضرّ﴾ مع

وصف اللّه له بالصبر، وقال سيد الصابرين صلوات اللّه وسلامه عليه «اللهم أشكو إليك ضعف قوّتي وقلة حيلتي.. إلخ».

وقال موسى صلوات الله وسلامه عليه: «اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك».

والنوع الثاني: شكوى المبتلى بلسان الحال أو المقال، فهذه لا تجامع الصبر بل تضاده وتبطله، فالفرق بين شكواه والشكوى إليه، وسنعود لهذه المسألة في باب اجتماع الشكوى والصبر وافتراقهما إن شاء الله تعالى.

وقيل: الصبر شجاعة النفس، ومن هاهنا أخذ القائل قوله: «الشجاعة صبر ساعة» وقيل: الصبر ثبات القلب عند موارد الاضطراب، والصبر والجزع ضدان ولهذا يقابل أحدهما بالآخر، قال تعالى عن أهل النار: ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص﴾ [إبراهيم: ٢١] والجزع قرين العجز وشقيقه، والصبر قرين الكَيْس ومادته، فلو سئل الجزع من أبوك؟ لقال: العجز، ولو سئل الكيس: من أبوك؟ لقال: الصبر. والنفس مطية العبد التي يسير عليها إلى الجنة أو النار، والصبر لها بمنزلة الخطام والزمام للمطية، فإن لم يكن للمطية خطام ولا زمام شردت في كل مذهب.

وحُفظ من خطب الحجاج: «اقدعوا هذه النفوس فإنها ظلعة إلى كل سوء، فرحم الله امرءاً جعل لنفسه خطاماً وزماماً فقادها بخطامها إلى طاعة الله وصرفها بزمامها عن معاصي الله، فإن الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذابه».

قلت: والنفس فيها قوتان: قوة الإقدام وقوة الإحجام، فحقيقة الصبر أن يجعل قوة الإقدام مصروفة إلى ما ينفعه، وقوة الإحجام إمساكاً عما يضره، ومن الناس من تكون قوة صبره على فعل ما ينتفع به وثباته عليه أقوى من صبره عما يضره، فيصبر على مشقة الطاعة ولا صبر له عن داعي

هواه إلى ارتكاب ما نهي عنه، ومنهم من تكون قوة صبره عن المخالفات أقوى من صبره على مشقة الطاعات، ومنهم من لا صبر له على هذا ولا ذاك، وأفضل الناس أصبرهم على النوعين، فكثير من الناس يصبر على مكابدة قيام الليل في الحر والبرد، وعلى مشقة الصيام، ولا يصبر عن نظرة محرمة، وكثير من الناس يصبر عن النظر وعن الالتفات إلى الصور، ولا صبر له على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد الكفار المنافقين، بل هو أضعف شيء عن هذا وأعجزه، وأكثرهم لا صبر له على واحد من الأمرين، وأقلهم أصبرهم في الموضعين. وقيل: «الصبر ثبات باعث العقل والدين في مقابلة باعث الهوى والشهوة»، ومعنى هذا أن الطبع يتقاضى ما يحب وباعث العقل والدين يمنع منه، والحرب قائمة بينهما وهي سجال، ومحرك هذه الحرب قلب العبد والصبر والشجاعة والثبات.

الباب الثالث
في بيان أسماء الصبر بالإضافة إلى متعلقه

لما كان الصبر المحمود هو الصبر النفساني الاختياري عن إجابة داعي الهوى المذموم كانت مراتبه وأسماؤه بحسب متعلقه، فإنه إن كان صبراً عن شهوة الفرج المحرمة سُمِّي عفة، وضدها الفجور والزنا والعُهْر، وإن كان عن شهوة البطن وعدم التسرع إلى الطعام أو تناول ما لا يجمل منه سمي شرف نفس وشبع نفس، وسمي ضده شرهاً ودناءة ووضاعة نفس، وإن كان عن إظهار ما لا يحسن إظهاره من الكلام سمي كتمان سر، وضده إذاعة وإفشاء أو تهمة أو فحشاء أو سباً أو كذباً أو قذفاً، وإن كان عن فضول العيش سمي زهداً، وضده حرصاً، وإن كان على قدر يكفي من الدنيا سمي قناعة، وضدها الحرص أيضاً، وإن كان عن إجابة داعي الغضب سمي حلماً وضده تسرعاً، وإن كان عن إجابة داعي العجلة سمي وقاراً وثباتاً وضده طيشاً وخفةً، وإن كان عن إجابة داعي الفرار والهرب سمي شجاعة وضده جبناً وخوراً، وإن كان عن إجابة داعي الانتقام سمي

عفواً وصفحاً وضده انتقاماً وعقوبةً، وإن كان عن إجابة داعي الإمساك والبخل سمي جوداً وضده بخلاً، وإن كان عن إجابة داعي الطعام والشراب في وقت مخصوص سمي صوماً، وإن كان عن إجابة داعي العجز والكسل سمي كَيْساً، وإن كان عن إجابة داعي إلقاء الكَلِّ على الناس وعدم حمل كَلِّهم سمي مروءة، فله عند كل فعل وترك اسم يخصه، بحسب متعلقه، والاسم الجامع لذلك كله: الصبر. وهذا يدلك على ارتباط مقامات الدين كلها بالصبر من أولها إلى آخرها. وهكذا يسمى عدلاً إذا تعلق بالتسوية بين المتماثلين وضده الظلم، ويسمى سماحة إذا تعلق ببذل الواجب والمستحب بالرضا والاختيار. وعلى هذا جميع منازل الدين.

الباب الرابع

في الفرق بين الصبر والتصبر والاصطبار والمصابرة

الفرق بين هذه الأسماء بحسب حال العبد في نفسه وحاله مع غيره، فإن حبس نفسه ومنعها عن إجابة داعي ما لا يحسن إن كان خلقاً له ومَلَكَةً سمي صبراً، وإن كان بتكلف وتمرن وتجرع لمرارته سمي تصبُّراً، كما يدل عليه هذا البناء لغة، فإنه موضوع للتكلّف كالتحلّم والتشجّع والتكرم والتحمّل ونحوها، وإذا تكلّفه العبد واستدعاه صار سجيةً له كما في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «ومن يتصبّر يصبره الله»، وكذلك العبد يتكلف التعفف حتى يصير التعفف له سجية، كذلك سائر الأخلاق، وهي مسألة اختلف فيها الناس: هل يمكن اكتساب واحد منها، أو التخلّق لا يصير خُلُقاً أبداً. كما قال الشاعر:

يُراد من القلب نسيانُكم ... وتأبى الطباع على الناقل

وقال آخر:

يا أيها المتحلِّي غير شيمته ... إن التخلق يأتي دونه الخلق

فقُبح التّطبّع شيمة المطبوع

قالوا: وقد فرغ الله سبحانه من الخَلْق والخُلُق والرزق والأجل، وقالت طائفة أخرى: بل يمكن اكتساب الخُلُق كما يكتسب العقل والحلم والجود والسخاء والشجاعة، والوجود شاهد بذلك. قالوا: والمزاولات تعطي المَلَكات، ومعنى هذا أن من زاول شيئاً واعتاده وتمرن عليه صار ملكة له وسجية وطبيعة، قالوا: والعوائد تنقل الطبائع، فلا يزال العبد يتكلف التصبُّر حتى يصير الصبر له سجية، كما أنه لا يزال يتكلف الحلم والوقار والسكينة والثبات حتى تصير له أخلاقاً بمنزلة الطبائع. قالوا: وقد جعل الله سبحانه في الإنسان قوة القبول والتعلم فَنَقْلُ الطبائع عن مقتضياتها غير مستحيل، غير أن هذا الانتقال قد يكون ضعيفاً فيعود العبد إلى طبعه بأدنى باعث، وقد يكون قوياً ولكن لم ينقل الطبع فقد يعود إلى طبعه إذا قوي الباعث واشتد، وقد يستحكم الانتقال بحيث يستحدث صاحبه طبعاً ثانياً، فهذا لا يكاد يعود إلى طبعه الذي انتقل عنه.

وأما الاصطبار فهو أبلغ من التصبر، فإنه افتعال للصبر بمنزلة الاكتساب، فالتصبر مبدأ الاصطبار، كما أن التكسب مقدمة الاكتساب، فلا يزال التصبر يتكرر حتى يصير اصطباراً.

وأما المصابرة فهي مقاومة الخصم في ميدان الصبر، فإنها مفاعلة تستدعي وقوعها بين اثنين كالمشاتمة والمضاربة، قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، فأمَرَهُم بالصبر، وهو حال الصابر في نفسه، والمصابرة وهي حاله في الصبر مع خصمه، والمرابطة وهي الثبات واللزوم والإقامة على الصبر والمصابرة، فقد يصبر العبد ولا يصابر، وقد يصابر ولا يرابط، وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبّد بالتقوى، فأخبر سبحانه أن ملاك ذلك كله التقوى، وأن الفلاح موقوف عليها، فقال: ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ فالمرابطة كما أنها لزوم الثغر الذي يُخاف هجوم العدو منه في الظاهر فهي لزوم ثغر القلب لئلا يدخل منه الهوى والشيطان فيزيله عن مملكته.

الباب الخامس

في انقسامه باعتبار محلّه

الصبر ضربان: ضرب بدني وضرب نفساني، وكل منهما نوعان: اختياري واضطراري، فهذه أربعة أقسام:

الأول: البدني الاختياري، كتعاطي الأعمال الشاقة على البدن اختياراً وإرادة.

الثاني: البدني الاضطراري، كالصبر على ألم الضرب والمرض والجراحات والبرد والحر وغير ذلك.

الثالث: النفساني الاختياري، كصبر النفس عن فعل ما لا يحسن فعله شرعاً ولا عقلاً.

الرابع: النفساني الاضطراري، كصبر النفس عن محبوبها قهراً إذا حيل بينها وبينه.

فإذا عرفت هذه الأقسام فهي مختصة بنوع الإنسان دون البهائم، ومشاركة البهائم في نوعين منها وهما صبر البدن والنفس الاضطراريين، وقد يكون بعضها أقوى صبراً من الإنسان، وإنما يتميز الإنسان عنها بالنوعين الاختياريين، وكثير من الناس تكون قوة صبره في النوع الذي يشارك فيه البهائم لا في النوع الذي يخص الإنسان، فيعد صابراً وليس من الصابرين.

فإن قيل: هل يشارك الجنُّ الإنسَ في هذا الصبر؟ قيل: نعم، هذا من لوازم التكليف وهو مظنة الأمر والنهي، والجن مكلفون بالصبر على الأوامر والصبر عن النواهي كما كلفنا نحن بذلك، فإن قيل: فهل هم مكلفون على الوجه الذي كلفنا نحن به أم على وجه آخر؟ قيل: ما كان من لوازم النفوس كالحب والبغض والإيمان والتصديق والموالاة والمعاداة فنحن وهم مستوون فيه، وما كان من لوازم الأبدان كغُسل الجنابة وغَسل

الأعضاء في الوضوء والاستنجاء والختان وغُسل الحيض ونحو ذلك فلا تجب مساواتهم لنا في تكلّفه، وإن تعلّق ذلك بهم على وجه يناسب خلقتهم وحياتهم.

فإن قيل: فهل تشاركنا الملائكة في شيء من أقسام الصبر؟ قيل: الملائكة لم يُبتلوا بهوىً يحارب عقولهم ومعارفهم، بل العبادة والطاعة لهم كالنَّفَس لنا، فلا يُتصور في حقهم الصبر الذي حقيقته ثبات باعث الدين والعقل في مقابلة باعث الشهوة والهوى، وإن كان لهم صبر يليق بهم وهو ثباتهم وإقامتهم على ما خُلقوا له من غير منازعة هوى أو شهوة أو طبع.

فالإنسان منا إذا غلب صبرُه باعثَ الهوى والشهوة التحق بالملائكة، وإن غلب باعثُ الهوى والشهوة صبرَه التحق بالشياطين، وإن غلب باعث طبعه من الأكل والشرب والجماع صبرَه التحق بالبهائم، قال قتادة: خلق الله سبحانه الملائكة عقولاً بلا شهوات، وخلق البهائم شهوات بلا عقول، وخلق الإنسان وجعل له عقلاً وشهوة، فمن غلب عقلُه شهوتَه فهو مع الملائكة، ومن غلبت شهوتُه عقلَه فهو كالبهائم، ولما خلق الإنسان في ابتداء أمره ناقصاً لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه، فصبره في هذه الحال بمنزلة صبر البهائم، وليس له قبل تمييزه قوة الاختيار، فإذا ظهرت فيه شهوة اللعب استعد لقوة الصبر الاختياري على ضعفها فيه، فإذا تعلقت به شهوة النكاح ظهرت فيه قوة الصبر، وإذا تحرك سلطان العقل وقَوِيَ استعان بجيش الصبر، ولكن هذا السلطان وجنده لا يستقلان بمقاومة سلطان الهوى وجنده فإن إشراق نور الهداية يلوح عليه عند أول سن التمييز وينمو على التدريج إلى سن البلوغ كما يبدو خيط الفجر ثم يتزايد ظهوره، وكلها هداية قاصرة غير مستقلة بإدراك مصالح الآخرة ومضارها، بل غايتها تعلقها ببعض مصالح الدنيا ومفاسدها، فإذا طلعت عليه شمس النبوة والرسالة وأشرق عليه نورها، رأى في ضوئها تفاصيل مصالح الدارين ومفاسدهما، فتلمّح العواقب ولبس لأمة الحرب وأخذ أنواع

الأسلحة، ووقع في حومة الحرب بين داعي الطبع والهوى وداعي العقل والهدى، والمنصور من نصره الله، والمخذول من خذله، ولا تضع الحرب أوزارها حتى ينزل في إحدى المنزلتين، ويصير إلى ما خلق له من الدارين.

الباب السادس

في بيان أقسامه بحسب اختلاف قوته وضعفه ومقاومته لجيش الهوى وعجزه عنه

وباعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال:

إحداها: أن يكون القهر والغلبة لداعي الدين فيرد جيش الهوى مفلولاً، وهذا إنما يصل إليه بدوام الصبر، والواصلون إلى هذه الرتبة هم المنصورون في الدنيا والآخرة وهم: ﴿الذين قالوا ربُّنا اللَّهُ ثم استقامُوا﴾ وهم الذين تقول لهم الملائكة عند الموت: ﴿ألاَّ تخافُوا ولا تَحزنُوا وأبشرُوا بالجنّةِ التي كُنتم تُوعدون نحنُ أولياؤُكم في الحياةِ الدنيا وفي الآخرة﴾ [فصلت: ٣٠]، وهم الذين نالوا معية الله مع الصابرين، وهم الذين جاهدوا في الله حق جهاده وخصهم بهدايته دون من عداهم.

الحالة الثانية: أن تكون القوة والغلبة لداعي الهوى فيسقط منازعه باعث الدين بالكلية، فيستسلم البائس للشيطان وجنده، فيقودونه حيث شاؤوا، وله معهم حالتان: إحداهما: أن يكون من جندهم وأتباعهم، وهذه حال العاجز الضعيف. الثانية: أن صير الشيطان من جنده، وهذه حال الفاجر القوي المتسلط والمبتدع الداعية لمتبوع، كما قال القائل:

وكنتُ امرءاً من جند إبليسَ فارتقى ... بيَ الحالُ حتى صارَ إبليسُ من جندي

فيصير إبليس وجنده من أعوانه وأتباعه، وهؤلاء هم الذين غلبت عليهم شقوتهم واشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، وإنما صاروا إلى هذه الحال لما أفلسوا من الصبر، وهذه الحالة هي حالة جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء

القضاء وشماتة الأعداء، وجند أصحابها المكر والخداع والأماني الباطلة والغرور والتسويف بالعمل وطول الأمل وإيثار العاجل على الآجل، وهي التي قال في صاحبها النبي ﷺ: «العاجز من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله الأماني». وأصحاب هذه الحال أنواع شتى: فمنهم المحارب لله ورسوله، الساعي في إبطال ما جاء به الرسول، يصد عن سبيل الله ويبغيها جهده عوجاً وتحريفاً ليصد الناس عنها. ومنهم المعرض عما جاء به الرسول، المقبل على دنياه وشهواتها فقط. ومنهم المنافق ذو الوجهين، الذي يأكل بالكفر والإسلام. ومنهم الماجن المتلاعب الذي قطع أنفاسه بالمجون واللهو واللعب. ومنهم من إذا وعظ قال واشوقاه إلى التوبة ولكنها قد تعذرت علي فلا مطمع لي فيها. ومنهم من يقول: ليس الله محتاجاً إلى صلاتي وصيامي، وأنا لا أنجو بعملي والله غفور رحيم. ومنهم من يقول: ترك المعاصي استهانة بعفو الله ومغفرته.

فكثِّر ما استطعت من الخطايا إذا كان القدوم على كريم

ومنهم من يقول: ماذا تقع طاعتي في جنب ما قد عملت، وما ينفع الغريق خلاص إصبعه وباقي بدنه غريق، ومنهم من يقول: سوف أتوب، وإذا جاء الموت ونزل بساحتي تبت وقُبِلَتْ توبتي، إلى غير ذلك من أصناف المغترين الذين صارت عقولهم في أيدي شهواتهم، فلا يستعمل أحدهم عقله إلا في دقائق الحيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهواته، فعقله مع الشيطان كالأسير في يد الكافر، يستعمله في رعاية الخنازير وعصر الخمر وحمل الصليب، وهو بقهره عقله وتسليمه إلى أعدائه عند الله بمنزلة رجل قهر مسلماً، وباعه للكفار، وسلمه إليهم، وجعله أسيراً عندهم.

فصل: وها هنا نكتة بديعة يجب التفطن لها، وينبغي إخلاء القلب لتأملها، وهي أن هذا المغرور لما أذل سلطان الله الذي أعزّه به وشرفه ورفع به قدره، وسلمه في يد أبغض أعدائه إليه، وجعله أسيراً له تحت قهره وتصرفه وسلطانه، سلط الله عليه من كان حقه هو أن يتسلط عليه فجعله

تحت قهره وتصرفه وسلطانه يسخِّره حيث شاء ويسخر منه، ويسخر منه جنده وحزبه، فكما أذل سلطانَ الله وسلمه إلى عدوه أذله الله وسلط عليه عدوه الذي أمره أن يتسلط هو عليه ويذله ويقهره، فصار بمنزلة من سلم نفسه إلى أعدى عدو له يسومه سوء العذاب، وقد كان بصدد أن يستأسره ويقهره ويشفي غيظه منه، فلما ترك مقاومته ومحاربته، واستسلم له سُلِّط عليه عقوبة له، قال الله تعالى: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾ [النحل: ٩٩].

فإن قيل: فقد أثبت له على أوليائه ها هنا سلطاناً فكيف نفاه بقوله تعالى حاكياً عنه مقرراً له: ﴿وقال الشيطانُ لما قُضي الأمرُ إنَّ اللّهَ وعدَكم وعدَ الحقِّ ووعدتُكم فأخلفتكم وما كان ليَ عليكم من سلطان إلَّا أنْ دعوتكم فاستجبتم لي﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وقالَ تعالى: ﴿ولقد صدَّق عليهم إبليسُ ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين، وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلمَ من يُؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك﴾ [سبأ: ٢١].

قيل: السلطان الذي أثبته له عليهم غير الذي نفاه من وجهين: أحدهما: أن السلطان الثابت هو سلطان التمكن منهم وتلاعبه بهم، وسوقه إياهم كيف أراد بتمكينهم إياه من ذلك بطاعته وموالاته، والسلطان الذي نفاه سلطان الحجة فلم يكن لإبليس عليهم من حجة يتسلط بها غير أنه دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان. الثاني: أن الله لم يجعل له عليهم سلطاناً ابتداءً البتة، ولكن هم سلطوه على أنفسهم بطاعته، ودخولهم في جملة جنده وحزبه، فلم يتسلّطن عليهم بقوته فإن كيده ضعيف، وإنما تسلطن عليهم بإرادتهم واختيارهم، والمقصود أن من قصد أعظم أوليائه وأحبابه ونصحائه فأخذه وأخذ أولاده وحاشيته وسلمهم إلى عدوه كان من عقوبته أن يسلط عليه ذلك العدو نفسه.

فصل: الحالة الثالثة: أن تكون الحرب سجالاً ودولاً بين الجندين،

فتارة له وتارة عليه، وتكثر نوبات الانتصار وتقلّ، وهذه حال أكثر المؤمنين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

وتكون الحال يوم القيامة موازنة لهذه الأحوال الثلاث سواء بسواء، فمن الناس من يدخل الجنة ولا يدخل النار، ومنهم من يدخل النار ولا يدخل الجنة، ومنهم من يدخل النار ثم يدخل الجنة، وهذه الأحوال الثلاثة هي أحوال الناس في الصحة والمرض، فمن الناس من تقاوم قوتُه داءَه فتقهره، ويكون السلطان للقوة، ومنهم من يقهر داؤه قوتَه ويكون السلطان للداء، ومنهم من تكون الحرب بين دائه وقوته نوباً فهو متردد بين الصحة والمرض.

فصل: ومن الناس من يصبر بجهد ومشقة، ومنهم من يصبر بأدنى حمل على النفس، ومثال الأول: كرجل صارع رجلاً شديداً فلا يقهره إلا بتعب ومشقة، والثاني كمن صارع رجلاً ضعيفاً فإنه يصرعه بغير مشقة، فهكذا تكون المصارعة بين جنود الرحمن وجنود الشيطان، ومن صرع جند الشيطان صرع الشيطان.

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «لقي رجلٌ من الإنس رجلاً من الجن فصارعه فصرعه الإنسي، فقال: مالي أراك ضئيلاً؟ فقال: إني من بينهم لضليع» فقالوا: أهو عمر بن الخطاب؟ فقال: «من ترونه غير عمر!».

وقال بعض الصحابة: إن المؤمن ينضي شيطانه كما ينضي أحدكم بعيره في السفر. وذكر ابن أبي الدنيا عن بعض السلف: إن شيطاناً لقي شيطاناً فقال: مالي أراك شحيباً؟ فقال: إني مع رجل إن أكل ذكر اسم الله فلا آكل معه، وإن شرب ذكر اسم الله فلا أشرب معه، وإن دخل بيته ذكر اسم الله فأبيت خارج الدار، فقال الآخر: لكنني مع رجل إن أكل لم يسمِّ الله فآكل أنا وهو جميعاً، وإن شرب لم يسم الله فأشرب معه، وإن

دخل داره لم يسمِّ الله فأدخل معه، وإن جامع امرأته لم يسمِّ الله فأجامعها معه. فمن اعتاد الصبر هابه عدوه، ومن عزَّ عليه الصبر طمع فيه عدوه وأوشك أن ينال منه غرضه.

الباب السابع

في ذكر أقسامه باعتبار متعلقه

الصبر باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام: صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها، وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها، وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها، وهذه الأنواع الثلاثة هي التي قال فيها الشيخ عبد القادر في فتوح الغيب: «لا بد للعبد من أمر يفعله، ونهي يجتنبه، وقدر يصبر عليه».

وهذا الكلام يتعلق بطرفين: طرف من جهة الرب تعالى، وطرف من جهة العبد.

فأما الذي من جهة الرب فهو أن الله تعالى له على عبده حكمان: حكم شرعي ديني، وحكم كوني قدري. فالشرعي متعلق بأمره، والكوني متعلق بخلقه، وهو سبحانه له الخلق والأمر. وحكمه الديني الطلبي نوعان بحسب المطلوب: فإن المطلوب إن كان محبوباً له فالمطلوب فعله إما واجباً وإما مستحباً، ولا يتم ذلك إلا بالصبر، وإن كان مبغوضاً له فالمطلوب تركه إما تحريماً وإما كراهة. وذلك أيضاً موقوف على الصبر، فهذا حكمه الديني الشرعي، وأما حكمه الكوني فهو ما يقضيه ويقدره على العبد من المصائب التي لا صنع له فيها، ففرضه الصبر عليها، وفي وجوب الرضا بها قولان للعلماء، وهما وجهان في مذهب أحمد أصحهما أنه مستحب. فمرجع الدين كله إلى هذه القواعد الثلاث: فعل المأمور، وترك المحظور، والصبر على المقدور. وأما الذي من جهة العبد فإنه لا ينفك عن هذه الثلاث ما دام مكلفاً ولا تسقط عنه هذه الثلاثة حتى يسقط عنه التكليف، فقيام عبودية

الأمر والنهي والقدر على ساق الصبر، لا تستوي إلا عليه كما لا تستوي السنبلة إلا على ساقها.

فالصبر يتعلق بالمأمور والمحظور والمقدور بالخلق والأمر، والشيخ دائماً يحوم حول هذه الأصول الثلاثة، كقوله: يا بني افعل المأمور واجتنب المحظور واصبر على المقدور. وهذه الثلاثة هي التي أوصى بها لقمان لابنه في قوله: ﴿يا بني أقمِ الصلاةَ وأْمُرْ بالمعروف وانْهَ عن المنكر واصبرْ على ما أصابَك﴾ [لقمان: ١٧]. فأمْره بالمعروف يتناول فعله بنفسه وأمر غيره به، وكذلك نهيه عن المنكر. أما من حيث إطلاق اللفظ فتدخل نفسه وغيره فيه، وأما من حيث اللزوم الشرعي فإن الآمر الناهي لا يستقيم له أمره ونهيه حتى يكون أول مأمور ومنهي. وذكر سبحانه هذه الأصول الثلاثة في قوله: ﴿إنما يتذكرُ أولو الألباب الذين يُوفون بعهد الله ولا ينقضونَ الميثاقَ والذين يَصِلُونَ ما أمرَ اللّهُ به أن يُوصلَ ويَخشون ربَّهم ويخافونَ سوءَ الحساب والذين صبروا ابتغاءَ وجهِ ربِّهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانيةً ويدرؤون بالحسنةِ السيئةَ أولئكَ لهم عقبى الدار﴾ [الرعد: ٢١ - ٢٣].

فجمع لهم مقامات الإسلام والإيمان في هذه الأوصاف، فوصفهم بالوفاء بعهده الذي عاهدهم عليه. وذلك يعم أمره ونهيه الذي عهده إليهم بينهم وبينه، وبينهم وبين خلقه، ثم أخبر عن استمرارهم بالوفاء به بأنهم لا يقع منهم نقضه، ثم وصفهم بأنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل، ويدخل في هذا ظاهر الدين وباطنه، وحق الله وحق خلقه، فيصلون ما بينهم وبين ربهم بعبوديته وحده لا شريك له، والقيام بطاعته والإنابة إليه، والتوكل عليه، وحبه وخوفه ورجائه والتوبة إليه، والاستكانة له والخضوع والذلة له، والاعتراف له بنعمته وشكره عليها، والإقرار بالخطيئة والاستغفار منها. فهذه هي الوصلة بين الرب والعبد. وقد أمر الله بهذه الأسباب التي بينه وبين عبده أن توصل، وأمر أن نوصل ما بيننا وبين رسوله بالإيمان به

وتصديقه وتحكيمه في كل شيء، والرضا لحكمه والتسليم له، وتقديم محبته على محبة النفس والولد والوالد والناس أجمعين، صلوات الله وسلامه عليه. فدخل في ذلك القيام بحقه وحق رسوله، وأمر أن نصل ما بيننا وبين الوالدين والأقربين بالبر والصلة، فإنه أمر ببر الوالدين وصلة الأرحام ذلك مما أمر به أن يوصل، وأمر أن نصل ما بيننا وبين الزوجات بالقيام بحقوقهن ومعاشرتهن بالمعروف، وأمر أن نصل ما بيننا وبين الأرقاء بأن نطعمهم مما نأكل ونكسوهم مما نكتسي ولا نكلفهم فوق طاقتهم، وأن نصل ما بيننا وبين الجار القريب والبعيد بمراعاة حقه، وحفظه في نفسه وماله وأهله بما نحفظ به نفوسنا وأهلينا وأموالنا، وأن نصل ما بيننا وبين الرفيق في السفر والحضر، وأن نصل ما بيننا بين عموم الناس بأن نأتي إليهم بما نحب أن يأتوه إلينا، وأن نصل ما بيننا وبين الحفظة الكرام الكاتبين بأن نكرمهم ونستحي منهم كما يستحي الرجل من جليسه ومن هو معه ممن يجلُّه ويكرمه.

فهذا كله مما أمر الله به أن يُوصل، ثم وصفهم بالحامل لهم على هذه الصلة، وهو خشيته وخوف سوء الحساب يوم المآب، ولا يمكن لأحد قط أن يصل ما أمر الله بوصله إلا بخشيته، ومتى ترحلت الخشية من القلب انقطعت هذه الوصلة. ثم جمع لهم سبحانه ذلك كله في أصل واحد هو أخيّة ذلك وقاعدته ومداره الذي يدور عليه وهو الصبر، فقال: ﴿والذين صَبروا ابتغاءَ وجهِ ربِّهم﴾ فلم يكتف منهم بمجرد الصبر حتى يكون خالصاً لوجهه.

ثم ذكر لهم ما يعينهم على الصبر وهي الصلاة فقال: ﴿وأقامُوا الصَّلاةَ﴾ وهذان هما العونان على مصالح الدنيا والآخرة، وهما الصبر والصلاة، فقال تعالى: ﴿واستعينوا بالصبرِ والصَّلاةِ وإنَّها لكبيرةٌ إلا على الخاشعين﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا استعينُوا بالصبرِ والصَّلاةِ إنَّ اللّهَ مع الصابرين﴾ [البقرة: ١٥٣].

ثم ذكر سبحانه إحسانهم إلى غيرهم بالإنفاق عليهم سراً وعلانية، فأحسنوا إلى أنفسهم بالصبر والصلاة، وإلى غيرهم بالإنفاق عليهم. ثم ذكر حالهم إذا جُهل عليهم وأُوذوا أنهم لا يقابلون ذلك بمثله، بل يدرؤون بالحسنة السيئة، فيحسنون إلى من يُسيء إليهم، فقال: ﴿ويدرؤون بالحسنةِ السيئةَ﴾ وقد فُسر هذا الدرء بأنهم يدفعون بالذنب الحسنة بعده، كما قال تعالى: ﴿إن الحسناتِ يُذْهِبْنَ السيئاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقال النبي ﷺ: «أتبع السيئة الحسنة تمحها» والتحقيق أن الآية تعم النوعين.

والمقصود أن هذه الآيات تناولت مقامات الإسلام والإيمان كلها، اشتملت على فعل المأمور وترك المحظور والصبر على المقدور. وقد ذكر تعالى هذه الأصول الثلاثة في قوله: ﴿بلى إنْ تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٢٥]، وقوله: ﴿إنه مَنْ يتقِّ ويصبرْ﴾ [يوسف: ٩٠]. وقوله: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا اصبرُوا وصابرُوا ورابطُوا واتّقُوا الله لعلكم تُفلحون﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. فكل موضع قرن فيه التقوى بالصبر اشتمل على الأمور الثلاثة، فإن حقيقة التقوى فعل المأمور وترك المحظور.

الباب الثامن

في انقسامه باعتبار تعلق الأحكام الخمسة به

وهو ينقسم بهذا الاعتبار إلى واجب ومندوب ومحظور ومكروه ومباح. فالصبر الواجب ثلاثة أنواع؛ أحدها الصبر عن المحرمات، والثاني الصبر على أداء الواجبات، والثالث الصبر على المصائب التي لا صنع للعبد فيها كالأمراض والفقر وغيرها.

وأما الصبر المندوب فهو الصبر عن المكروهات، والصبر على المستحبات، والصبر على مقابلة الجاني بمثل فعله.

وأما المحظور فأنواع: أحدها الصبر عن الطعام والشراب حتى يموت،

وكذلك الصبر عن الميتة والدم ولحم الخنزير عند المخمصة حرام إذا خاف بتركه الموت، قال طاووس وبعده الإمام أحمد: «من اضطر إلى أكل الميتة والدم فلم يأكل فمات دخل النار».

فإن قيل: فما تقولون في الصبر عن المسألة في هذه الحال؟

قيل: اختلف في حكمه: هل هو حرام أو مباح؟ على قولين هما لأصحاب أحمد، وظاهر نصه أن الصبر عن المسألة جائز، فإنه قيل له: إذا خاف إن لم يسأل أن يموت؟ فقال: لا يموت، يأتيه الله برزقه. أو كما قال، فأحمد منع وقوع المسألة، ومتى علم الله ضرورته وصدقه في ترك المسألة قيّض الله له رزقاً.

وقال كثير من أصحاب أحمد والشافعي: يجب عليه المسألة، وإن لم يسأل كان عاصياً؛ لأن المسألة تتضمن نجاته من التلف.

فصل: ومن الصبر المحظور صبر الإنسان على ما يقصد هلاكه من سبع أو حيات أو حريق أو ماء أو كافر يريد قتله، بخلاف استسلامه وصبره في الفتنة وقتال المسلمين، فإنه مباح له بل يستحب، كما دلت عليه النصوص الكثيرة، وقد سئل النبي ﷺ عن هذه المسألة بعينها فقال: «كن كخير ابْنَيْ آدم» وفي لفظ: «كن عبد الله المقتول ولا تكن عبدالله القاتل» وفي لفظ: «دعه يبوء بإثمه وإثمك» وفي لفظ آخر: «فإن بهرك شعاع السيف فضع يدك على وجهك». وقد حكى الله استسلام خير ابني آدم وأثنى عليه بذلك، وهذا بخلاف قتل الكافر فإنه يجب عليه الدفع عن نفسه، لأن من مقصود الجهاد أن يدفع عن نفسه وعن المسلمين. وأما قتال اللصوص فهل يجب فيه الدفع أو يجوز فيه الاستسلام؟ فإن كان عن معصوم غيره وجب، وإن كان عن نفسه فظاهر نصوصه أنه لا يجب الدفع، وأوجبه بعضهم، ولا يجوز الصبر على من قصده أو حرمته بالفاحشة.

فصل: وأما الصبر المكروه فله أمثلة: أحدها: أن يصبر عن الطعام والشراب واللبس وجماع أهله حتى يتضرر بذلك بدنه. الثاني: صبره عن جماع زوجته إذا احتاجت إلى ذلك ولم يتضرر به. الثالث: صبره على المكروه. الرابع: صبره عن فعل المستحب.

فصل: وأما الصبر المباح: فهو الصبر عن كل فعل مستوي الطرفين خُيِّر بين فعله وتركه والصبر عليه.

وبالجملة فالصبر على الواجب واجب، وعن الواجب حرام، والصبر عن الحرام واجب وعليه حرام. والصبر على المستحب مستحب وعنه مكروه. والصبر عن المكروه مستحب وعليه مكروه. والصبر عن المباح مباح. والله أعلم.

الباب التاسع

في بيان تفاوت درجات الصبر

الصبر كما تقدم نوعان: اختياري واضطراري، والاختياري أكمل من الاضطراري، فإن الاضطراري يشترك فيه الناس ويتأتى ممن لا يتأتى منه الصبر الاختياري، ولذلك كان صبر يوسف الصديق ﷺ عن مطاوعة امرأة العزيز، وصبره على ما ناله في ذلك من الحبس والمكروه أعظم من صبره على ما ناله من إخوته لَمَّا ألقوه في الجُبِّ وفرقوا بينه وبين أبيه وباعوه بيع العبد، ومن الصبر الثاني إنْشاءُ اللّهِ سبحانه له ما أنشأه من العز والرفعة والملك والتمكين في الأرض، وكذلك صبر الخليل ﷺ، والكليم، وصبر نوح، وصبر المسيح، وصبر خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كان صبراً على الدعوة إلى الله ومجاهدة أعداء الله، ولهذا سماهم الله أولي العزم، وأمر رسوله أن يصبر صبرهم فقال: ﴿فاصبرْ كما صَبَرَ أُولو العزمِ من الرسل﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وأولو العزم هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لكم من الدين ما وصَّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما

وصّينا به إبراهيم ومُوسى وعيسى﴾ [الشورى: ١٣]، وفي قولـه: ﴿وإذْ أخذَنا من النبيينَ ميثاقَهم ومنكَ ومن نوحٍ وإبـراهيمَ ومُوسى وعيسى﴾ [الأحزاب: ٧]، كذلك قال ابن عباس وغيره من السلف، ونهاه سبحانه أن يتشبَّه بصاحب الحوت حيث لم يصبر صبر أولي العزم، فقال: ﴿فاصبْر لحكم رِبِّك ولا تكنْ كصاحبِ الحوتِ إذ نادَى وهو مكظوم﴾ [القلم: ٤٨].

وهاهنا سؤال نافع وهو أن يقال: ما العامل في الظرف وهو قوله (إذ نادى) ولا يمكن أن يكون الفعل المنهي عنه، إذ يصير المعنى لا تكن مثله في ندائه، وقد أثنى الله سبحانه عليه في هذا النداء، فأخبر أنه نجّاه به فقال: ﴿وذا النُّون إذ ذهبَ مُغاضباً فظنَ أنْ لن نقدرَ عليه فنادى في الظلمات أنْ لا إلَه إلا أنتَ سبحانَك إني كنتُ من الظالمين، فاستجبنا له ونجّيناه من الغمِّ وكذلك نُنجي المؤمنين﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وفي الترمذي وغيره، عن النبي ﷺ أنه قال: «دعوة أخي ذي النون إذ دعا بها في بطن الحوت، ما دعا بها مكروبٌ إلا فرَّجَ الله عنه: لا إلَه إلا أنتَ سبحانَك إني كنتُ من الظالمين»، فلا يمكن أن ينهى عن التشبه به في هذه الدعوة وهي النداء الذي نادى به ربه، وإنما نهى عن التشبه به في السبب الذي أفضى به إلى هذه المناداة، وهي مغاضبته التي أفضت به إلى حبسه في بطن الحوت وشدة ذلك عليه حتى نادى ربه وهو مكظوم، والكظيم والكاظم: الذي قد امتلأ غيظاً وغضباً وهماً وحزناً وكظم عليه فلم يخرجه.

فإن قيل: وعلى ذلك فما العامل في الظرف؟ قيل: ما في صاحب الحوت من معنى الفعل.

فإن قيل فالسؤال بعد قائم، فإنه إذا قيد المنهي بقيد أو زمن كان داخلاً في حيز النهي، فإن كان المعنى: لا تكن مثل صاحب الحوت في هذه الحال أو هذا الوقت كان نهياً عن تلك الحالة.

قيل: لما كان نداؤه مسبباً عن كونه صاحب الحوت، فنهي أن يتشبَّه

به في الحال التي أفضت به إلى صحبته الحوت والنداء، وهى ضعف العزيمة والصبر لحكمه تعالى، ولم يقل تعالى: ولا تكن كصاحب الحوت إذ ذهب مغاضباً فالتقمه الحوت فنادى، بل طوى القصة واختصرها وأحال بها على ذكرها في الموضع الآخر، واكتفى بغايتها وما انتهت إليه.

فإن قيل: فما منعك بتعويض الظرف بنفس الفعل المنهي عنه، أي لا تكن مثله في ندائه وهو ممتلىء غيظاً وهماً وغماً، بل يكون نداؤك نداء راض بما قُضي عليه قد تلقاه بالرضا والتسليم وسعة الصدر لا نداء كظيم. قيل هذا المعنى وإن كان صحيحاً إلا أن النهي لم يقع عن التشبه به في مجرده، وإنما نهي عن التشبه به في الحال التي حملته على ذهابه مغاضباً حتى سجن في بطن الحوت، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فاصبرْ لحكم ربك﴾ ثم قال: ﴿ولا تكنْ كصاحب الحوت﴾ أي في ضعف صبره لحكم ربه، فإن الحالة التي نهي عنها هي ضد الحالة التي أمر بها.

فإن قيل: فما منعك أن تصبر حيث أمر بالصبر لحكمه الكوني القدري الذي يقدره عليه ولا تكن كصاحب الحوت حيث لم يصبر عليه، بل نادى وهو كظيم لكشفه فلم يصبر على احتماله والسكون تحته؟.

قيل: منع من ذلك أن الله سبحانه أثنى على يونس وغيره من أنبيائه بسؤالهم إياه كشف ما بهم من الضر، وقد أثنى عليه سبحانه بذلك في قوله: ﴿وذا النون إذْ ذهبَ مغاضباً فظنَّ أنْ لنْ نقدر عليه فنادَى في الظلماتِ أنْ لا إلَه إلا أنتَ سبحانَك إني كنتُ من الظالمين، فاستجبنا له فنجّيناه من الغمِّ وكذلك نُنجي المؤمنين﴾ فكيف ينهى عن التشبه به فيما يثني عليه ويمدحه به، وكذلك أثنى على أيوب بقوله: ﴿مسني الضرُّ وأنتَ أرحمُ الرَّاحمين﴾ [الأنبياء: ٨٣]، وعلى يعقوب بقوله: ﴿إنما أشكو بَثِّي وحُزني إلى الله﴾ [يوسف: ٨٦]، وعلى موسى بقوله: ﴿ربِّ إني لما أنزلتُ إليَّ من خيرٍ فقير﴾ [القصص: ٢٤]، وقد شكا إليه خاتم أنبيائه ورسله بقوله: «اللهم أشكو إليك ضعفَ قوتي وقلةَ حيلتي» الحديث. فالشكوى إليه

سبحانه لا تنافي الصبر الجزيل، بل إعراض عبده عن الشكوى إلى غيره جملة، وجعل الشكوى إليه وحده هو الصبر، والله تعالى يبتلي عبده ليسمع شكواه وتضرعه ودعاءه، وقد ذم سبحانه من لم يتضرع إليه ولم يستكن له وقت البلاء، كما قال تعالى: ﴿ولقد أخذناهُم بالعذاب فما استكانُوا لربِّهم وما يتضرَّعُون﴾ [المؤمنون: ٧٦]. والعبد أضعف من أن يتجلد على ربه. والرب تعالى لم يرد من عبده أن يتجلد عليه، بل أراد منه أن يستكين له ويتضرع إليه، وهو تعالى يمقت من يشكوه إلى خلقه ويحب من يشكو ما به إليه، وقيل لبعضهم: كيف تشتكي إليه ما ليس يخفى عليه؟ فقال: ربي يرضى ذل العبد إليه.

والمقصود أنه سبحانه أمر رسوله أن يصبر صبر أولي العزم الذين صبروا لحكمه اختياراً وهذا أكمل الصبر، ولهذا دارت قصة الشفاعة يوم القيامة على هؤلاء حتى ردوها إلى أفضلهم وخيرهم وأصبرهم لحكم الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

فإن قيل: أيُّ أنواع الصبر الثلاثة أكمل: الصبر على المأمور، أم الصبر عن المحظور، أم الصبر على المقدور؟.

قيل: الصبر المتعلق بالتكليف، وهو الأمر والنهي أفضل من الصبر على مجرد القدر، فإن هذا الصبر يأتي به البر والفاجر، والمؤمن والكافر، فلا بد لكل أحد من الصبر على القدر اختياراً أو اضطراراً.

وأما الصبر على الأوامر والنواهي فصبر أتباع الرسل، وأعظمهم أتباعاً أصبرهم في ذلك، وكل صبر في محله وموضعه أفضل: فالصبر عن الحرام في محله أفضل، وعلى الطاعة في محلها أفضل.

فإن قيل: أي الصبرين أحبُّ إلى الله؟ صبر من يصبر على أوامره، أم صبر من يصبر عن محارمه؟.

قيل: هذا موضع تنازع فيه الناس. فقالت طائفة: الصبر عن

المخالفات أفضل؛ لأنه أشق وأصعب، فإن أعمال البر يفعلها البر والفاجر، ولا يصبر عن المخالفات إلا الصدّيقون: قالوا: ولأن الصبر عن المحرمات صبر على مخالفة هوى النفس، وهو أشق شيء وأفضله. وقالوا: ولأن ترك المحبوب الذي تحبه النفوس دليل على أن من ترك لأجله أحب إليه من نفسه وهواه، بخلاف فعل ما يحبه المحبوب فإنه لا يستلزم ذلك. قالوا: وأيضاً فالمروءة والفتوة كلُّها في هذا الصبر.

قال الإمام أحمد: «الفتوة ترك ما تهوى لما تخشى» فمروءة العبد وفتوته بحسب هذا الصبر. قالوا: وليس العجب ممن يصبر على الأوامر، فإن أكثرها محبوبات للنفوس السليمة لما فيها من العدل والإحسان والإخلاص والبر، وهذه محاب للنفوس الفاضلة الزكية، بل العجب ممن يصبر عن المناهي التي أكثرها محاب للنفوس فيترك المحبوب العاجل في هذه الدار للمحبوب الآجل في دار أخرى، والنفس الموكلة بحب العاجل فصبرها عنه مخالف لطبعها.

قالوا: ولأن المناهي لها أربعة دواعٍ تدعو إليها: نفس الإنسان وشيطانه وهواه ودنياه، فلا يتركها حتى يجاهد هذه الأربعة، وذلك أشق شيء على النفوس وأمرُّه، قالوا: فالمناهي من باب حمية النفوس عن مشتهياتها ولذاتها، والحميّة مع قيام داعي التناول وقوته من أصعب شيء وأشقه، قالوا: ولذلك كان باب قربان النهي مسدوداً كله. وباب الأمر إنما يفعل منه المستطاع، كما قال النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه»، فدل على أن باب المنهيات أضيق من باب المأمورات، وإنه لم يرخص في ارتكاب شيء منه كما رخص في ترك بعض المأمورات للعجز والعذر. قالوا: ولهذا كانت عامة العقوبات من الحدود وغيرها على ارتكاب المنهيات بخلاف ترك المأمور، فإن الله سبحانه لم يرتب عليه حداً معيناً فأعظم المأمورات الصلاة، وقد اختلف العلماء هل على تاركها حَدٌّ أم لا؟.

فصل: فهذا بعض ما احتجت به الطائفة، وقالت طائفة أخرى: بل الصبر على فعل المأمور أفضل وأجلُّ من الصبر على ترك المحظور؛ لأن فعل المأمور أحب إلى الله من ترك المحظور، والصبر على أحب الأمرين أفضل وأعلى، وبيان ذلك من وجوه:

أحدها: إن فعل المأمور مقصود لذاته فهو مشروع شرع المقاصد، فإن معرفة الله وتوحيده وعبوديته وحده والإنابة إليه والتوكل عليه، وإخلاص العمل له ومحبته والرضا به والقيام في خدمته هو الغاية التي خلق لها الخلق وثبت بها الأمر، وذلك أمر مقصود لنفسه، والمنهيات إنما نُهي عنها لأنها صادة عن ذلك، أو شاغلة عنه أو مفوتة لكماله، ولذلك كانت درجاتها في النهي بحسب صدها عن المأمور وتعويقها عنه وتفويتها لكماله، فهي مقصودة لغيرها، والمأمور مقصود لنفسه، فلو لم يصدّ الخمر والميسر عن ذكر الله وعن الصلاة وعن التوادِّ والتحابّ الذي وضعه الله بين عباده لما حرمه، وكذلك لو لم يحل بين العبد وبين عقله الذي به يعر ف الله ويعبده ويحمده ويمجده ويصلي له ويسجد لما حرّمه، وكذلك سائر ما حرمه إنما حرمه لأنه يصد عما يحبه ويرضاه، ويحول بين العبد وبين إكماله.

الثاني: إن المأمورات متعلقة بمعرفة الله وتوحيده وعبادته وذكره وشكره ومحبته والتوكل عليه والإنابة إليه، فمتعلقها ذات الرب تعالى وأسماؤه وصفاته. ومتعلق المنهيات ذوات الأشياء المنهي عنها، والفرق من أعظم ما يكون.

الثالث: إن ضرورة العبد وحاجته إ فعل المأمور أعظم من ضرورته إلى ترك المحظور، فإنه ليس إلى شيء أحوج وأشد فاقة منه إلى معرفة ربه وتوحيده وإخلاص العمل له، وإفراده بالعبودية والمحبة والطاعة، وضرورته إلى ذلك أعظم من ضرورته إلى نفسه، ونفسه وحياته أعظم من ضرورته إلى غذائه الذي به قوام بدنه، بل هذا لقلبه وروحه كالحياة والغذاء لبدنه، وهو إنما هو إنسان بروحه وقلبه لا ببدنه وقالبه، كما قيل:

يا خادمَ الجسم كم تشقى بخدمته فأنتَ بالقلب لا بالجسم إنسان

وترك المنهي إنما شرع له تحصيلاً لهذا الأمر الذي هو ضروري له، وما أحوجه وأفقره إليه.

الرابع: إن ترك المنهي من باب الحمية، وفعل المأمور من باب حفظ القوة والغذاء الذي لا تقوم البنية بدونه، ولا تحصل الحياة إلا به، فقد يعيش الإنسان مع تركه الحمية وإن كان بدنه عليلاً أشد ما يكون علة، ولا يعيش بدون القوة والغذاء الذي يحفظها، فهذا مثل المأمورات والمنهيات.

الخامس: إن الذنوب كلها ترجع إلى هذين الأصلين: ترك المأمور وفعل المحظور، ولو فعل العبد المحظور كله من أوله إلى آخره حتى أتى من مأمور الإيمان بأدنى أدنى مثقال ذرة منه نجا بذلك من الخلود في النار، ولو ترك كل محظور ولم يأت بمأمور الإيمان لكان مخلداً في السعير، فأين شيء مثاقيل الذر منه تخرج من النار، إلى شيء وزن الجبال منه أضعافاً مضاعفة لا تقتضي الخلود في النار، مع وجود ذلك المأمور أو أدنى شيء منه.

السادس: إن جميع المحظورات من أولها إلى آخرها تسقط بمأمور التوبة، ولا تسقط المأمورات كلها معصية المخالفة إلا بالشرك أو الوفاة عليه، ولا خلاف بين الأمة أن كل محظور يسقط بالتوبة منه، واختلفوا هل تسقط الطاعة بالمعصية؟ وفي المسألة نزاع وتفاصيل ليس هذا موضعه.

السابع: إن ذنب الأب[1] كان بفعل المحظور فكان عاقبته أن اجتباه ربه فتاب عليه وهدى، وذنب إبليس كان بترك المأمور فكان عاقبته ما ذكر الله سبحانه، وجعل هذا عبرة للذرية إلى يوم القيامة.

الثامن: إن المأمور محبوب إلى الرب، والمنهي مكروه له، وهو سبحانه إنما قدره وقضاه لأنه ذريعة إلى حصول محبوبه من عبده ومن نفسه تعالى.

---

(١) الأب: المراد به آدم عليه الصلاة والسلام.

أما من عبده فالتوبة والاستغفار والخضوع والذل والانكسار وغير ذلك. وأما من نفسه فبالمغفرة والتوبة على العبد والعفو عنه، والصفح والحلم والتجاوز عن حقه، وغير ذلك مما هو أحب إليه تعالى من فواته بعدم تقدير ما يكرهه، وإذا كان إنما قدر ما يكرهه لأنه يكون وسيلة إلى ما يحبه علم أن محبوبه هو الغاية، ففوات محبوبه أبغض إليه وأكره له من حصول مبغوضه، بل إذا ترتب على حصول مبغوضه ما يحبه من وجه آخر كان المبغوض مراداً له إرادة الوسائل، كما كان النهي عنه وكراهته لذلك. وأما المحبوب فمراده إرادة المقاصد كما تقدم، فهو سبحانه إنما خلق الخلق لأجل محبوبه ومأموره وهو عبادته وحده، كما قال تعالى: ﴿وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبُدون﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقدر مكروهه ومبغوضه تكميلاً لهذه الغاية التي خلق خلقه لأجلها، فإنه ترتب عليه من المأمورات ما لم يكن يحصل بدون تقديره، كالجهاد الذي هو أحب العمل إليه والموالاة فيه والمعاداة فيه، ولولا محبته لهذه المأمورات لما قدر من المكروه له ما يكون سبباً لحصولها.

التاسع: إن ترك المحظور لا يكون قربة ما لم يقارنه فعل المأمور، فلو ترك العبد كل محظور لم يثبه الله عليه حتى يقارنه مأمور الإيمان، وكذلك المؤمن لا يكون تركه المحظور قربة حتى يقارنه مأمور النية بحيث يكون تركه لله، فافتقر ترك المنهيات بكونه قربة يثاب عليها إلى فعل المأمور، ولا يفتقر فعل المأمور في كونه قربة وطاعة إلى ترك المحظور، ولو افتقر إليه لم يقبل الله طاعة من عصاه أبداً، وهذا من أبطل الباطل.

العاشر: إن المنهي عنه مطلوب إعدامه، والمأمور مطلوب إيجاده، والمراد إيجاد هذا وإعدام ذاك، فإذا قدر عدم الأمرين أو وجودهما كان وجودهما خير من عدمهما، فإنه إذا عدم المأمور لم ينفع عدم المحظور، وإذا وجد المأمور فقد يُستعان به على دفع المحظور أو دفع أثره، فوجود القوة والمرض خير من عدم الحياة والمرض.

الحادي عشر: إن باب المأمور الحسنةُ فيه بعشر أمثالها إلى سبعمائة

ضعف إلى أضعاف كثيرة، وباب المحظور السيئةُ فيه بمثلها، وهي بصدد الزوال بالتوبة والاستغفار، والحسنة الماحية والمصيبة المكفِّرة، واستغفار الملائكة للمؤمنين واستغفار بعضهم لبعض وغير ذلك، وهذا يدل على أنه أحب إلى الله من عدم المنهي.

الثاني عشر: إن باب المنهيات يمحوه الله سبحانه ويبطل أثره بأمور عديدة من فعل العبد وغيره، فإنه يبطله بالتوبة النصوح وبالاستغفار وبالحسنات الماحية وبالمصائب المكفرة، وباستغفار الملائكة وبدعاء المؤمنين، فهذه ستة في حال حياته، وبتشديد الموت وكربه وسياقه عليه، فهذا عند مفارقته الدنيا، وبهول المطلع وروعة الملكين في القبر وضغطته وعصرته له، وشدة الموقف وعنائه وصعوبته، وبشفاعة الشافعين فيه، وبرحمة أرحم الراحمين له، فإن عجزت عنه هذه الأمور فلا بدّ له من دخول النار، ويكون لبثه فيها على قدر بقاء خبثه ودرنه، فإن الله حرم الجنة إلا على كل طيب، فما دام درنه ووسخه وخبثه فيه فهو في كير التطهر حتى يتصفى من ذلك الوسخ والخبث، وأما باب المأمورات فلا يبطله إلا الشرك.

الثالث عشر: إن جزاء المأمورات الثواب وهو من باب الإحسان والفضل والرحمة، وجزاء المنهيات العقوبة وهي من باب الغضب والعدل، ورحمته سبحانه تغلب غضبه، فما تعلق بالرحمة والفضل أحب إليه مما تعلق بالغضب والعدل، وتعطيل ما تعلق بالرحمة أكره إليه من فعل ما تعلق بالغضب.

الرابع عشر: إن باب المنهيات تسقط الآلاف المؤلفة منه الواحدة من المأمورات، وباب المأمورات لا يسقط الواحدة منه الآلاف المؤلفة من المنهيات.

الخامس عشر: إن متعلق المأمورات الفعل وهو صفة كمال، بل كمال المخلوق من فعاله فإنه فعل فكمل، ومتعلق النهي الترك، والترك عدم، ومن حيث هو كذلك لا يكون كمالاً، فإن العدم المحض ليس بكمال، وإنما يكون كمالاً لما يتضمنه أو يستلزمه من الفعل الوجودي الذي

هو سبب الكمال، وأما أن يكون مجرد الترك الذي هو عدم محض كمالاً أو سبباً للكمال فلا. مثال ذلك لو ترك السجود للصنم لم يكن كماله في مجرد هذا الترك ما لم يكن يسجد لله، وإلا فلو ترك السجود لله وللصنم لم يكن ذلك كمالاً، وكذلك لو ترك تكذيب الرسول ومعاداته لم يكن بذلك مؤمناً ما لم يفعل ضد ذلك من التصديق والحب وموالاته وطاعته، فعلم أن الكمال كله في المأمور، وأن المنهي ما لم يتصل به فعل المأمور لم يفد شيئاً ولم يكن كمالاً، فإن الرجل لو قال للرسول: لا أكذبك ولا أصدقك، ولا أواليك ولا أعاديك، ولا أحاربك ولا أحارب من يحاربك، لكان كافراً، ولم يكن مؤمناً بترك معاداته وتكذيبه ومحاربته ما لم يأت بالفعل الوجودي الذي أمر به.

السادس عشر: إن العبد إذا أتى بالمأمور به على وجهه ترك المنهي عنه ولا بد. فالمقصود إنما هو فعل المأمور، ومع فعله على وجه يتعذر فعل المنهي، فالمنهي عنه في الحقيقة هو تعريض المأمور للإضاعة، فإن العبد إذا فعل ما أمر به من العدل والعفة امتنع من صدور الظلم والفواحش منه، فنفس العدل يتضمن ترك الظلم، ونفس العفة تتضمن ترك الفواحش، فدخل ترك المنهي عنه في المأمور به ضمناً وتبعاً، وليس كذلك في عكسه، فإن ترك المحظور لا يتضمن فعل المأمور فإنه قد يتركهما معاً كما تقدم. فعلم أن المقصود هو إقامة الأمر على وجهه، ومع ذلك لا يمكن ارتكاب النهي البتة، وأما ترك المنهي عنه فإنه لا يستلزم إقامة الأمر.

السابع عشر: إن الرب تعالى إذا أمر عبده بأمر ونهاه عن أمر ففعلهما جميعاً كان قد حصل محبوب الرب وبغيضه، فقد تقدم له من محبوبه ما يدفع عنه شر بغيضه ومقاومته، ولا سيما إذا كان فعل ذلك المحبوب أحب إليه من ترك ذلك البغيض فيهب له من جنايته ما فعل من هذا بطاعته، ويتجاوز له عما فعل من الآخر.

ونظير هذا في الشاهد أن يقتل الرجل عدواً للملك هو حريص على

قتله. وشرب مسكراً نهاه عن شربه، فإنه يتجاوز له عن هذه الزلة بل عن أمثالها في جنب ما أتى به من محبوبه، وأما إذا ترك محبوبه وبغيضه فإنه لا يقوم ترك بغيضه بمصلحة فعل محبوبه أبداً، كما إذا أمر الملك عبده بقتل عدوه ونهاه عن شرب مسكر، فعصاه في قتل عدوه مع قدرته عليه وترك شرب المسكر، فإن الملك لا يهب له جرمه بترك أمره في جنب ترك ما نهاه عنه، وقد فطر الله عباده على هذا. فهكذا السادات مع عبيدهم والآباء مع أولادهم والملوك مع جندهم والزوجات مع أزواجهم، ليس التارك منهم محبوب الأمر ومكروهه بمنزلة الفاعل منهم محبوب أمر ومكروهه.

يوضحه الوجه **الثامن عشر**: أن فاعل محبوب الرب يستحيل أن يفعل جميع مكروهه، بل يترك من مكروهه بقدر ما أتى به من محبوبه، فيستحيل الإتيان بجميع مكروهه وهو يفعل ما أحبه وأبغضه، فغايته أن اجتمع الأمران فيحبه الرب تعالى من وجه ويبغضه من وجه. أما إذا ترك المأمور به جملة فإنه لم يقم به ما يحبه الرب عليه، فإن مجرد ترك المنهي لا يكون طاعة إلا باقترانه بالمأمور كما تقدم فلا يحبه على مجرد الترك وهو سبحانه يكرهه ويبغضه على مخالفة الأمر، فصار مبغوضاً للرب تعالى من كل وجه إذ ليس فيه ما يحبه الرب عليه. فتأمله.

يوضحه الوجه **التاسع عشر**: وهو أن الله سبحانه لم يعلق محبته إلا بأمْر وجودي أَمَر به إيجاباً أو استحباباً ولم يعلقها بالترك من حيث هو ترك ولا في موضع واحد، فإنه يحب التوابين ويحب المحسنين، ويحب الشاكرين، ويحب الصابرين ويحب المتطهرين، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بُنيان مرصوص، ويحب المتقين، ويحب الذاكرين، ويحب المتصدقين، فهو سبحانه إنما علق محبته بأوامره إذ هي المقصود من الخلق والأمر، كما قال تعالى: ﴿وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلاّ ليعبُدون﴾ [الذاريات: ٥٦]. فما خلق الخلق إلا لقيام أوامره، وما نهاهم إلا عما يصدهم عن قيام أوامره ويعوقهم عنها.

يوضحه الوجه **العشرون**: إن المنهيات لو لم تَصُدّ عن المأمورات وتمنع وقوعها على الوجه الذي أمر الله بها لم يكن للنهي عنها معنى، وإنما نهى عنها لمضادتها لأوامره وتعويقها لها وصدها عنها، فالنهي عنها من باب التكميل والتتمة للمأمور، فهو بمنزلة تنظيف طرق الماء ليجري في مجاريه غير معوق، فالأمر بمنزلة الماء الذي أرسل في نهر لحياة البلاد والعباد، والنهي بمنزلة تنظيف طرقه ومجراه وتنقيتها مما يعوق الماء، والأمر بمنزلة القوة والحياة، والنهي بمنزلة الحمية الحافظة للقوة والداء والخادم لها.

قالوا: وإذا تبين أن فعل المأمور أفضل فالصبر عليه أفضل أنواع الصبر، وبه يسهل عليه الصبر عن المحظور والصبر على المقدور، فإن الصبر الأعلى يتضمن الصبر الأدنى دون العكس، وقد ظهر لك من هذا أن الأنواع الثلاثة متلازمة، وكل نوع منها يعين على النوعين الآخرين، وإن كان من الناس من قوة صبره على المقدور، فإذا جاء الأمر والنهي فقوة صبره هناك ضعيفة، ومنهم من هو بالعكس من ذلك، ومنهم من قوة صبره في جانب الأمر أقوى، ومنهم من هو بالعكس والله أعلم.

الباب العاشر
في انقسام الصبر إلى محمود ومذموم

الصبر ينقسم إلى قسمين: قسم مذموم وقسم ممدوح:

فالمذموم: الصبر عن الله وإرادته ومحبته وسير القلب إليه، فإن هذا الصبر يتضمن تعطيل كمال العبد بالكلية وتفويت ما خلق له. وهذا كما أنه أقبح الصبر فهو أعظمه وأبلغه، فإنه لا صبر أبلغ من صبر من يصبر عن محبوبه الذي لا حياة له بدونه البتة، كما أنه لا زهد أبلغ من زهد الزاهد فيما أعد الله لأوليائه من كرامته مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فالزهد في هذا أعظم أنواع الزهد، كما قال رجل لبعض الزاهدين وقد تعجب لزهده: «ما رأيت أزهد منك!» فقال: «أنت أزهد

مني، أنا زهدت في الدنيا وهي لا بقاء لها ولا وفاء، وأنت زهدت في الآخرة، فمن أزهد منا؟». قال يحيى بن معاذ الرازي: «صبر المحبين أعجب من صبر الزاهدين، واعجباً كيف يصبرون!»، وفي هذا قيل:

الصبر يُحمد في المواطن كلِّها إلا عليك فإنه لا يُحمد

ووقف رجل على الشبلي فقال: أي صبر أشد على الصابرين؟ فقال: الصبر في الله؟ قال: لا. فقال: الصبر لله؟ فقال: لا. قال: فالصبر مع الله؟ قال: لا. قال: فإيش هو؟ قال: الصبر عن الله. فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تزهق.

وقيل: الصبر مع الله وفاء، والصبر عن الله جفاء، وقد أجمع الناس على أن الصبر عن المحبوب غير محمود، فكيف إذا كان كمال العبد وفلاحه في محبته، ولم تزل الأحباب تعيب المحبين بالصبر عنهم كما قيل:

والصبرُ عنك فمذمومٌ عواقبُه والصبرُ في سائرِ الأشياء محمودُ

وقال آخر في الصبر عن محبوبه:

إذا لعبَ الرجالُ بكلِّ شيءٍ رأيتُ الحبَّ يلعبُ بالرجالِ
وكيف الصبرُ عمن حلَّ مني بمنزلةِ اليمين مع الشمال

وشكا آخر إلى محبوبه ما يقاسي من حبه فقال: لو كنت صادقاً لما صبرت عني.

ولما شكوتُ الحبَّ قالتْ كذبتني ترى الصبَّ عن محبوبه كيف يصبرُ

فصل: وأما الصبر المحمود فنوعان: صبر لله، وصبر بالله، قال الله تعالى: ﴿واصبرْ وما صبرُك إلا بالله﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال: ﴿واصبرْ لحكمِ ربِّك فإنك بأعيننا﴾ [الطور: ٤٨]. وقد تنازع الناس أي الصبرين أكمل؟ فقالت طائفة: «الصبر له أكمل، فإن ما كان لله أكمل مما كان بالله، فإن ما كان له فهو غاية وما كان به فهو وسيلة، والغايات أشرف من الوسائل، ولذلك وجب الوفاء بالنذر إذا كان تبرراً وتقرباً إلى الله لأنه نذر

له، ولم يجب الوفاء به إذا خرج مخرج اليمين لأنه حلف به، فما كان له سبحانه فهو متعلق بألوهيته، وما كان به فهو متعلق بربوبيته، وما تعلق بألوهيته أشرف مما تعلق بربوبيته، ولذلك كان توحيد الألوهية هو المنهي من الشرك دون توحيد الربوبية بمجرده، فإن عبّاد الأصنام كانوا مقرِّين بأن الله وحده خالق كل شيء وربه ومليكه، ولكن لما لم يأتوا بتوحيد الألوهية وهو عبادته وحده لا شريك له، لم ينفعهم توحيد ربوبيته.

وقالت طائفة: الصبر بالله أكمل بل لا يمكن الصبر له إلا بالصبر به، كما قال تعالى: ﴿واصبرْ﴾ فأَمَره بالصبر، والمأمور به هو الذي يفعل لأجله، ثم قال: ﴿وما صبرُك إلا بالله﴾. فهذه جملة خبرية غير الجملة الطلبية التي تقدمتها، أخبر فيها أنه لا يمكنه الصبر إلا به، وذلك يتضمن أمرين: الاستعانة به والمعية الخاصة التي تدل عليها باء المصاحبة كقوله: «فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي» وليس المراد بهذه الباء الاستعانة، فإن هذا أمر مشترك بين المطيع والعاصي، فإن ما لا يكون بالله لا يكون، بل هي باء المصاحبة والمعية التي صرح بمضمونها في قوله: ﴿إنَّ الله مع الصابرين﴾، وهي المعية الحاصلة لعبده الذي تقرب إليه بالنوافل حتى صار محبوباً له، فبه يسمع وبه يبصر، وكذلك به يصبر فلا يتحرك ولا يسكن ولا يدرك إلا والله معه، ومن كان كذلك أمكنه الصبر له وتحمل الأثقال لأجله، كما في الأثر الإلهي يعني «وما يتحمل المتحملون من أجلي»، فدل قوله: ﴿وما صبرُك إلا بالله﴾ على أنه من لم يكن الله معه لم يمكنه الصبر، وكيف يصبر على الحكم الأمري امتثالاً وتنفيذاً وتبليغاً، وعلى الحكم القدري احتمالاً له واضطلاعاً به، من لم يكن الله معه؟. فلا يطمع في درجة الصبر المحمودِ عواقبُه من لم يكن صبره بالله، كما لا يطمع في درجة التقرب المحبوب من لم يكن سمعه وبصره وبطشه ومشيه بالله.

وهذا هو المراد من قوله: «كنتَ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها» ليس المراد أني كنت

نفس هذه الأعضاء والقوى كما يظنه أعداء الله أهل الوحدة، وأن ذات العبد هي ذات الرب، تعالى الله عن قول إخوان النصارى علواً كبيراً، ولو كان كما يظنون لم يكن فرق بين هذا العبد وغيره، ولا بين حالتي تقرُّبه إلى ربه بالنوافل وتمقُّته إليه بالمعاصي، بل لم يكن هناك متقرِّب ومتقرَّب إليه، ولا عبد ولا معبود؛ ولا محب ولا محبوب، فالحديث كله مكذب لدعواهم الباطلة من نحو ثلاثين وجهاً تعرف بالتأمل الظاهر. وقد فسر المراد من قوله: «كنت سمعه وبصره ويده ورجله» بقوله: «فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي» فعبر عن هذه المصاحبة التي حصلت بالتقرب إليه بمحابه بألطف عبارة وأحسنها تدل على تأكد المصاحبة ولزومها حتى صار له بمنزلة سمعه وبصره ويده ورجله.

ونظير هذا قوله: «الحجر الأسود يمين الله في الأرض، فمن صافحه وقبَّله فكأنما صافح الله وقبّل يمينه».

ومثل هذا سائغ في الاستعمال أن ينزل إلى منزلة ما يصاحبه ويقارنه حتى يقول المحب للمحبوب أنت روحي وسمعي وبصري، وفي ذلك معنيان: أحدهما أنه صار منه بمنزلة روحه وقلبه وسمعه وبصره. والثاني أن محبته وذكره لما استولى على قلبه وروحه صار معه وجليسه، كما في الحديث: «يقول الله تعالى: أنا جليس من ذكرني»، وفي الحديث الآخر: «أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه»، وفي الحديث: «فإذا أحببت عبدي كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً» ولا يعبر عن هذا المعنى بأتم من هذه العبارة ولا أحسن ولا ألطف منها، وإيضاح هذه العبارة مما يزيدها جفاءً وخفاءً.

والمقصود إنما هو ذكر الصبر بالله، وأن العبد بحسب نصيبه من معية الله له يكون صبره، وإذا كان الله معه أمكن أن يأتي من الصبر بما لا يأتي به غيره. قال أبو علي: «فاز الصابرون بعز الدارين، لأنهم نالوا من الله معيته»، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مع الصابرين﴾.

وها هنا سر بديع وهو أن من تعلق بصفة من صفات الرب تعالى أدخلته تلك الصفة عليه وأوصلته إليه، والرب تعالى هو الصبور، بل لا أحد أصبر على أذى سمعه منه، وقد قيل: إن الله سبحانه أوحى إلى داود «تخلق بأخلاقي فإن من أخلاقي أني أنا الصبور» والرب تعالى يحب أسماءه وصفاته، ويحب مقتضى صفاته وظهور آثارها في العبد فإنه جميل يحب الجمال، عفو يحب أهل العفو، كريم يحب أهل الكرم، عليم يحب أهل العلم، وتر يحب أهل الوتر، قوي والمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف، صبور يحبّ الصابرين، شكور يحب الشاكرين، وإذا كان سبحانه يحب المتصفين بآثار صفاته فهو معهم بحسب نصيبهم من هذا الاتصاف، فهذه المعية الخاصة عبر عنها بقوله: «كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً».

فصل: وزاد بعضهم قسمًا ثالثاً من أقسام الصبر، وهو الصبر مع الله، وجعلوه أعلى أنواع الصبر، وقالوا: هو الوفاء، ولو سئل هذا عن حقيقة الصبر مع الله لما أمكنه أن يفسره بغير الأنواع الثلاثة التي ذكرت، وهي الصبر على أقضيته، والصبر على أوامره، والصبر عن نواهيه، فإن زعم أن الصبر مع الله هو الثبات معه على أحكامه يدور معها حيث دارت فيكون دائمًا مع الله لا مع نفسه، فهو مع الله بالمحبة والموافقة، فهذا المعنى حق ولكن مداره على الصبر على الأنواع المتقدمة، وإن زعم أن الصبر مع الله هو الجامع لأنواع الصبر، فهذا حق ولكنْ جعلُه قسمًا رابعاً من أقسام الصبر غيرُ مستقيم.

واعلم أن حقيقة الصبر مع الله هو ثبات القلب بالاستقامة معه، وهو أن لا يروغ عنه روغان الثعالب هاهنا وهاهنا، فحقيقة هذا هو الاستقامة إليه وعكوف القلب عليه. وزاد بعضهم قسماً آخر من أقسامه وسماه الصبر فيه، وهذا أيضاً غير خارج عن أقسام الصبر المذكورة، ولا يعقل من الصبر فيه معنى غير الصبر له. وهذا كما يقال فعلت هذا في الله وله، كما قال خبيب:

وذلك في ذاتِ الإلّه وإن يشأْ يباركْ على أوصال شِلْوٍ ممزّع[1]

وقد قال تعالى: ﴿والذين جاهدُوا فينا لنهدينَّهم سُبلنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] وقال: ﴿وجاهِدُوا في الله﴾ [الحج: ٧٨] وفي حديث جابر: «إن الله تعالى لما أحيا أباه وقال له: تمنّ! قال: يا رب أن ترجعني إلى الدنيا حتى أُقتل فيك مرة ثانية»، وقال ﷺ: «ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد» وهذا يفهم منه معنيان: أحدهما: أن ذلك في مرضاته وطاعته وسبيله، وهذا فيما يفعله الإنسان باختياره، كما في الحديث: «تعلمت فيك العلم». والثاني أنه بسببه وبجهته حصل ذلك، وهذا فيما يصيبه بغير اختياره وغالب ما يأتي قولهم «ذلك في الله» في هذا المعنى، فتأمل قوله ﷺ: «ولقد أوذيت في الله» وقول خبيب: «وذلك في ذات الإلّه»، وقول عبدالله بن خزام: «حتى أقتل فيك»، وكذلك قوله: ﴿والذين جاهدوا فينا﴾ فإنه يترتب عليه الأذى فيه سبحانه.

وليست (في) هاهنا للظرفية ولا لمجرد السببية وإن كانت السببية هي أصلها، فانظر إلى قوله: «في نفس المؤمن مائة من الإبل» وقوله: «دخلت امرأة النار في هرة» كيف تجد فيه معنى زائداً على السببية، وليست (في) للوعاء في جميع معانيها، فقولك: «فعلت هذا في مرضاتك» فيه معنى زيد على قولك: «فعلته لمرضاتك» وأنت إذا قلت: «أوذيت في الله» لا يقوم مقام هذا اللفظ كقولك «أوذيت لله» ولا «بسبب الله» وإذا فهم المعنى طوي حكم العبارة، والمقصود أن الصبر في الله إن أريد به هذا المعنى فهو حق، وإن أريد به معنى خارج عن الصبر على أقضيته وعلى أوامره وعن نواهيه وله وبه لم يحصل، فالصابر في الله كالمجاهد في الله، والجهاد فيه لا يخرج عن معنى الجهاد به وله. والله الموفق.

وأما قول بعضهم: «الصبر لله غناء، والصبر بالله بقاء، والصبر في

(١) شلو: أي عضو. وقبل هذا يقول:
ولستُ أبالي حين أُقتل مسلماً على أيِّ جَنْبٍ كان في الله مصرعي

الله بلاء، والصبر مع الله وفاء، والصبر عن الله جفاء». فكلام لا يجب التسليم لقائله لأنه ذكر ما سنح له تصوره، وإنما يجب التسليم للنقل المصدق عن القائل المعصوم، ونحن نشرح هذه الكلمات.

أما قوله: «الصبر لله غناء» فإن الصبر لله بترك حظوظ النفس ومرادها لمراد الله وهذا أشق شيء على النفس وأصعبه، فإن قطع المفازة التي بين النفس وبين الله بحيث يسير منها إلى الله شديد جداً على النفس، بخلاف السفر إلى الآخرة فإنه سهل كما قال الجنيد: «السير من الدنيا إلى الآخرة سهل، يعني على المؤمن، وهجران الخلق في جنب الحق شديد، والسير من النفس إلى الله صعب شديد، والصبر مع الله أشد».

وأما قوله: «والصبر بالله بقاء» فلأن العبد إذا كان بالله هان عليه كل شيء ويتحمل الأثقال ولم يجد لها ثقلاً، فإنه إذا كان بالله لا بالخلق ولا بنفسه كان لقلبه وروحه وجودٌ آخر وشأن آخر، غير شأنه إذا كان بنفسه وبالخلق، وبهذا الحال لا يجد عناء الصبر ولا مرارته، وتنقلب مشاق التكليف له نعيماً وقرة عين، كما قال بعض الزهاد: «عالجت قيام الليل سنة وتنعمت به عشرين سنة». ومن كانتَ قرة عينه في الصلاة لم يجد لها مشقة وكلفة.

وأما قوله: «والصبر في الله بلاء» فالبلاء فوق العناء، والصبر فيه فوق الصبر له وأخص منه كما تقدم، فإن الصبر فيه بمنزلة الجهاد فيه وهو أشق من الجهاد له، فكل مجاهد في الله وصابر في الله، مجاهد له وصابر له من غير عكس، فإن الرجل قد يجاهد ويصبر لله مرة ليقع عليه اسم من فعل ذلك لله، ولا يقع عليه اسم من فعل ذلك في الله، وإنما يقع على من انغمس في الجهاد والصبر ودخل الجنة.

وأما قوله: «والصبر مع الله وفاء» فلأن الصبر معه هو الثبات معه على أحكامه، ولا يزيغ القلب عن الإنابة ولا الجوارح عن الطاعة، فتعطى